



نجم محفوظ



القلم

الظتريق

مطبعة خان بكينة مهر

الطريق

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب ١٩٨٨

الناشر : مكتبة معمر
٣ شارع كامل صدق أنباله

دار مصر للطباعة

سعيد هودة السحار وشركاه

أغرورقت عيناه . رغم ضبطه لمشاعره و كراهيته أن يبكي أمام هؤلاء الرجال
أغرورقت عيناه . و يبصر مائع نظر إلى الجثمان وهو يحمل من النعش إلى فوهة
القبر . بدا في كفته نحيلا كأن لا وزن له ، شد ما هزلت يا أماء ، وتوارت عن
ناظريه تماما فلم يعد يرى إلا ظلمة . وسطعته رائحة التراب ، ومن حوله احتشد
الرجال ففاحت أنفاس كريهة وعرق ، وفي الحوش خارج الحجرة ارتفع لغط
النساء ، وانفعل برائحة التراب حتى عافت نفسه كل شيء . وهم بالانحناء فوق
القبر ولكن يدا شدت على ذراعه وصوتا قال :
— تذكر ربك ..

تقزز من ملمسه ولعنه من الأعماق . هذا خنزير كسائر من حوله من
الخننازير . ولكن لحظة الوداع استردته بوخزة كالندم ، وقال إن معاشره ربع قرن
من الزمان لا تعنى في هذه اللحظة شيئا ولا تساوى شيئا ، وتردد من بعيد صوت
كالعواء ثم دخل الحجرة طابور من العميان فطوقوا القبر في نصف دائرة ثم جلسوا
القرفصاء . وشعر بأعين كثيرة تحدق فيه أو تسترق إليه النظرات ، إنه يعرف ما
تعنيه هذه النظرات . وشد قامته الرشيقه في عناد . يقولون لم يقف هكذا غريبا في
منظره وملبسه كأنه ليس واحدا منا . لم نخته أمه عن بيتته ثم تركته وحيدا ؟ . إنهم
لا يعزونك ولكنهم يدارون شماتتهم بك . ومذاق الحياة أمسى كالتراب . وبرز من
الفوهة الترابي ومساعدته فوقها فوق سطح الأرض مرة أخرى وأقبلا يسدان القبر
ثم يسويان الأرض في نشاط وحيوية . ونادى السقاء على الماء ، ورتل العميان ، ثم
ردد رئيسهم التلقين . وتساءل عما ستجيب به أمه . وقال إنها ستكون وحيدة
حقا . وماذا يقول في ذلك الخنازير ؟ . ها هو الخشوع يغشى جباههم كسحابة

صيف . وأدركه الضجر فتاق إلى الوحدة في بيته وألحت عليه رغبة في أن يعيد النظر في كل شيء . ستحرق الأسئلة المخرجة بأمة في ظلام القبر . ولن يساعدها أحد من هؤلاء الشياطين ، ولكن يومكم سيجيء . وانخفضت الأصوات في نغمة حزينة موحية بالختام ، ووقف الطابور في حال انتظار وتقدم الترابي منه خطوات . عند ذاك قال الواقف إلى يمينه :

— دعه لي فلا تحاسبه إلى أدري هؤلاء الناس ..

وثار حنقه من جديد ولكنه أدرك أن الطقوس قد انتهت وتضاعف شعوره بالوحدة . وألقى على المقبرة نظرة شاملة فارتاح لأناقتها وتراءى له بين قضبان النافذة اللبلاب والصبار والريحان التي تتركش جدار الفناء والأركان . كانت رحمها الله تحب الرفاهية فأعدتها للدارين ولكن لم يبق لها إلا المقبرة . وتحرك الناس في بطء نحو الحوش فمضى إلى الباب الخارجى ليودع المشيعين . وصافحته النساء أولاً ، ورغم ثياب الحداد والبكاء والمطم لم تختف من أعينهن نظرات الفجور ولا زائلت وجوههن القحة وفتلات التهتك . وتتابع الرجال ، شد حيلك وسعيكم مشكور ، من تاجر مخدرات إلى بلطجى ومن برمجى إلى قواد . وأتبعهم نظرة باردة وهو لا يشك في أنهم يبادلونه نفس العاطفة . ومع ذلك لم ينس أنه مدين لهم وهو ما يؤكد سخطه دواما . وقال إنه قد انتهى منهم إلى الأبد ولكنه بلا نصير . وفي طريقه إلى مسكنه بشارع النبي دانيال لفحه هواء منعش معبق بأنفاس الخريف وبدت السماء غامضة في مولد المغيب . مسكن النبي دانيال الذى شهد فترة بهيجة ناعمة من حياته ، ولا أثر للراحلة في مسكنه إلا صوان كبير ونارجيلة مبهمة تحت فراشها المهجور . وجلس في شرفة تطل على ملتقى النبي دانيال بسعد زغلول يدخن سيجارة فجذب بصره استعداد قائم في شقة على الجانب الآخر للطريق تسكنها أسرة أفريقية ، فتمة بوفيه رصت عليه القوارير وأوعية الثلج ، وفي نهاية البهو تعانق رجل وامرأة بحرارة لا تناسب الوقت المبكر . وقال إنه ابتداء من اليوم سيعرف الحياة على حقيقتها . إنه وحيد بلا مال ولا عمل

ولا أهل ولم يبق إلا أمل غريب كالحلم ، إنه مطالب منذ اليوم بتأمين حياته ، وهي مسئولية لم يتحملها من قبل . إذ نهضت بها أمه وحدها ، ففرغ هو طوال الوقت لإمتاع شبابه اليافع . وأمس فقط لم يكن يفكر في الموت بحال . في مثل هذه الساعة أو قبل ذلك بقليل جاء الخنطور بأمه فغادرته معتمدة على ذراعه وسارت في خطوات متخاذلة متخاذلة من الإعياء والضعف ، وقد وهنت وهزلت وكبرت ثلاثين عاما فوق عمرها الحقيقي الذي لم يجاوز الخمسين . هكذا تبدت بسيمة عمران في آخر صورة لها ، وهي راجعة إلى بيت ابنها ، أو البيت الذي أعدته لابنها ، بعد أن قضت في السجن خمس سنوات . وتأوهت قائلة :

— أملك انتهت يا صابر ..

فحملها بين ذراعيه دون مشقة وهو يقول :

— كلام فارغ ، ما زلت في عز الشباب ..

واستلقت على فراشها قبل أن تنزع قطعة من ملابسها ، ثم ألمأت وجهها نحو مرآة في الصوان وقالت بحسرة وهي تنهج :

— أملك انتهت يا صابر ، من يصدق أن هذا الوجه هو وجه بسيمة عمران ! ..

الآن . في استدارة البدر كان . ووجنة موردة كالتفاح ، وأما الجسد الجسيم الهائل فلم يكن ليتهز هزة واحدة عند القهقهة ، وقهقهتها كانت تهتز لها المجالس .

— لعنة الله على المرض ..

فقالت وهي تجفف وجهها بكمها رغم لطافة الجو :

— ليس المرض وحده ولكنه السجن ، والمرض جاء من السجن ، أملك لم تخلق لذلك ، وقالوا الكبد والضغط والقلب . الله يمرض عيشتهم ، ترى ألا يمكن أن أرجع إلى ما كنت ؟

— وأحسن ، عندك الراحة والطب ..

— والمال ؟!

— ٨ —

وامتعض عند ذلك فلم ينبس ، فسألته :

— ماذا تبقى لك منه ؟

لم يخل من حذر وهو يجيب :

— شيء لا يذكر ..

— كنت حكيمة عندما كتبت بيت رأس التين باسمك وإلا لصادروه فيما

صادروا من مالى .

— ولكنى بعته عندما نفذت نقودى كما قلت لك وقتها ..

فتأوهت وهى تضع راحتها على يافوخها :

— آه يا رأسى ، ليتك أبقيت عليه ، كان فى يدك مال كثير ولكننى أنا التى

عودتك على الحياة الحلوة ، أردت أن تعيش مثل الأكابر ، وأردت أن أترك لك

ثروة لا يفرقها البحر ، ثم ..

— ثم ضاع كل شيء فى خبطة واحدة ..

— نعم ، منهم لله ، انقاص وضع من رجل وضع ، رجل طالما تنعم بنقودى ،

ثم حقد على بسبب بنت لا تساوى ثلاثة ملاليم فتذكر فجأة الواجب والقانون

والأعراض وأوقع فى ابن الزانية ، لذلك بصقت على وجهه فى المحكمة ..

وطلبت سيجارة بإشارة من يدها فأشعل لها سيجارة وهو يقول :

— الأفضل ألا تدخنى الآن ، هل كنت تدخين هناك ؟

— سجائر وحشيش وأفيون ، ولكنى كنت قلقة عليك دائما ..

ودخنت رغم تهافتها ، وجففت وجهها وعنقها بيدها الأخرى :

— وماذا عن مستقبلك يا بنى ؟

— كيف لى أن أدرى ؟ ، ليس أمامى إلا أن أعمل برمجيا أو بلطجيا أو

قوادا !..

— أنت !

— حق أنك علمتنى حياة أجمل ولكنى أخشى ألا يكون ذلك فى صالحى ..

— ٩ —

— أنت لم تخلق للسجون !
 — وماذا فى الدنيا غير هذه الأعمال ؟
 ثم مستدركا فى حدة :
 — كم شمت بى الأعداء فى غيابك !
 — صابر .. تجنب الغضب . إنه الغضب الذى أدخلنى السجن فما كان
 أسهل على أن أرضى الوغد الذى غدر بى ..
 — فى كل مكان أصادف من يستحق السجن ..
 — دعهم يقولوا ما يشاءون ولكن لا تستعمل قبضتك ..
 فكور قبضته قائلا :
 — لولا هذه القبضة لعرضوا بى فى كل مكان ، إن أحدا لم يجرؤ على ذكرك
 بسوء أمامى وأنت فى السجن ..
 فنفتحت الدخان فى غضب وقالت :
 — أمك أشرف من أمهاتهم ، إننى أعنى ما أقول ، ألا يعلمون أنه لولا أمهاتهم
 لبارت تجارتى .. !
 ابتسم صابر رغم الكتابة الشاملة فعادت تقول :
 — إنهم مهرة فى خداع الناس بمظاهرههم ، الوجيه فلان .. المدير فلان ..
 الخواجا علان .. سيارات وملابس وسيجار .. كلمات حلوة .. روائح
 زكية .. لكننى أعرفهم على حقيقتهم ، أعرفهم فى حجرات النوم وهم مجردون
 من كل شيء إلا العيوب والفضائح ، وعندى حكايات ونوادير لا تنفذ ، الأطفال
 الخبثاء القذرون الأشقياء ، وقبل المحاكمة اتصل بى كثيرون منهم ورجونى بإلحاق
 ألا أذكر اسم واحد منهم ووعدونى بالبراءة ، مثل هؤلاء لا يجوز أن يعيرونك بأهلك
 فأهلك أشرف من أمهاتهم وزوجاتهم وبناتهم ، وصدقنى أنه لولا هؤلاء لبارت
 تجارتى ..
 عاوده الابتسام فتأوهت قائلة :

— ١٠ —

— أين أيام الضحك أين ؟، أمك أحبتك بذل قواها ، ولك أعددت هذا المسكن الجميل بعيدا عن جوى كله ، وأرسلت مالى يجرى تحت قدميك فإذا جاءتك منى إساءة لا حيلة لى فيها فلا ذنب لى ، وليس فى الرجال من له نصف جمالك ورشاقتك ، غير أنه يجب أن تتجنب الغضب وأن تنعظ بما جرى لى .. رنا إلى تعاستها بحزن ثم تتم :

— سيعود كل شىء إلى أصله ..

— أصله ١٩، أنا انتهيت ، بسيمة أيام زمان لن تعود ، ولا سبيل إلى العمل من جديد ، لا الصحة تسمح بذلك ولا البوليس .. ونظر إلى الأرض قائلا :

— لم يبق من ثمن البيت إلا القليل ..

— وما العمل ؟، يجب أن تعيش كما عودتك !

— لكنى لم أعرفك يائسة أبدا .

— إلا هذه المرة ..

— إذن على أن أعمل أو أن أقتل ..

أطفأت السيجارة ثم أغمضت عينها إعياء أو طلبا للتركيز فقال صابر :

— لا بد من مخرج .

— نعم طالما فكرت فى ذلك وأنا فى السجن ..

لأول مرة فى حياته تزعزعت ثقته فى أمه . واستطردت المرأة :

— أجل فكرت طويلا ، ثم أقنعت نفسى بأنه لا يصح أن أصر على الاحتفاظ

بك ما دام ذلك فى غير مصلحتك ..

حدجها بنظرة متسائلة من عينيه السوداوين فتمتعت بنبرة اعتراف منهزمة :

— أنت لا تفهم شيئا ولك حق ، الواقع أن الحكومة صادرتك ساعة

صادرت أموالى ، لم يعد لى الحق فى امتلاكك أنت أيضا ، أدركت ذلك يوم

صدور الحكم ..

— ١١ —

وصمتت من شدة معاناة اليأس ثم واصلت :

— معنى هذا أنه يجب أن تهجرنى ..

تساءل بامتعاض :

— إلى أين ؟

أجابت بصوت لا يكاد يسمع :

— إلى أبيك ..

رفع حاجبيه المقرونين فى ذهول هاتفا :

— أوى ؟

فهزت رأسها علامة الإيجاب فقال :

— لكنه ميت ، أنت قلت إنه مات قبل مولدى ..

— قلت ذلك ولكنه ليس من الحقيقة فى شىء ..

— أوى حى ، شىء مذهل حقا ، أوى حى !

وجعلت ترمقه بنظرة استياء ومضى هو يقول :

— أوى حى ، لكن لم أخفيت عنى ذلك ؟

— آه جاء دور الحساب ..

— أبدا ، ولكن ألا يحق لى أن أسأل ؟

— أى أب فى الدنيا كان يمكن أن يهيب لك من أسباب السعادة بعض ما هيأت

لك ..

— لا أنكر شيئا من هذا أبدا ..

— إذن فلا تحاسبنى واستعد للبحث عنه ..

— البحث ؟

— نعم إنى أتحدث عن رجل كنت امرأة له منذ ثلاثين عاما ثم لم أعد أدرى عنه

شيئا ..

قطب فى حيرة وتهوى خذعه الذى أطلقه الانفعال :

- أمى ما معنى هذا كله ؟
- معناه أنى أوجهك إلى المخرج الوحيد من ورطتك ..
- لعله قد مات ..
- ولعله حى ..
- وهل أضيع عمرى فى البحث عن شىء قبل التأكد من وجوده ؟
- ولكنك لن تتأكد من وجوده إلا بالبحث ، وهو خير على أى حال من بقائك بلا مال ولا أمل ..
- موقف غريب لن أحسد عليه .
- بديله الوحيد أن تعمل يربحيا أو بلطجيا أو قوادا أو قاتلا ، فلا بد مما ليس منه بد ..
- وكيف يمكن أن أعثر عليه ؟
- تهدت من الأعماق وهى تزداد تعاسة بالعودة إلى الماضى :
- أما اسمه فهو المسجل فى شهادة ميلادك ، سيد سيد الرحيمى ، وقد أحبنى منذ ثلاثين عاما وكان ذلك فى القاهرة ..
- القاهرة ! ، ليس أيضا فى الإسكندرية !
- إنى أعلم أن مشكلتك الحقيقية ستكون فى العثور عليه ..
- لم لم يبحث عنى هو ؟
- إنه لم يعلم بك ..
- قطب صابر واستقرت فى عينيه نظرة احتجاج مكفهرة فقالت :
- انتظر ، لا تنظر إلى هكذا ، واسمع بقية الحديث عنه ، إنه سيد ووجيه بكل معنى الكلمة ، لا حد لثروته ولا نفوذه ، لم يكن فى ذلك الوقت إلا طالبا بالجامعة ومع ذلك كانت الدنيا تهتز لدى محضره . تابعها بنظرة تجل فيها الاهتمام المشوب بالفتور فقالت :
- أحبنى ، وكنت بتسا جميلة ضائعة ، وحفظنى سرا فى قفص من ذهب ..

— ١٣ —

- تزوجك ..
- نعم ، وما زلت أحفظ بشهادة الزواج ..
- ثم طلقك ؟
- تنهدت قائلة :
- بل هربت !
- هربت !؟
- هربت بعد معاشرة أعوام وأنا حبل ، هربت مع رجل من أعماق
الطين ..
- بذهول وهو يهز رأسه :
- شيء لا يصدق ..
- وبعد قليل ستهمني بأننى المسئولة عن ورتطتك ..
- لن أتهمك بشيء فحسبنا ما بنا ، ولكن ألم يبحث عنك ؟
- لا أدري ، هربت إلى الإسكندرية ثم لم أسمع عنه شيئا ، وكثيرا ما توقعت
أن ألقاه يوما في أحد بيوتى ولكن عيني لم تقع عليه ..
- ضحك في فتور ثم قال :
- وبعد ثلاثين عاما تدفعيننى للبحث عنه ..
- أليس يدفنا إلى ما هو أغرب من ذلك ، وستكون معك شهادة الزواج
وستكون معك أيضا صورة الزفاف ، وسوف ترى بعينيك أنك صورة منه ..
- عجيب أن تحتفظى بالشهادة والصورة ..
- كنت أفكر في مستقبلك ، وكنت فتاة فقيرة تعيش في كنف بلطجى ،
ولما أتانى النجاح صدقت نيتى على الاستئثار بك ..
- ومع ذلك لم تتخلصى من بقايا الذكريات ..
- جففت وجهها وعنفها بحركة حادة بعض الشيء وقالت :
- هممت بذلك مرات ثم عدلت ، كأن ركنا في كان يتنبأ بما سيقع ..

- راح يذرع الحجرة في حيرة ثم وقف أمام السرير وهو يسأل :
- وإذا بعد الجهد والتعب أنكرني ؟
- من يرى بهاء صورتك وينكرك ؟!
- عاد إلى الجلوس وهو يقول :
- القاهرة مدينة كبيرة وأنا لم أزرها من قبل ..
- من قال إنه اليوم في القاهرة ؟ لم لا يكون في الإسكندرية ، أو في أسبوط أو دمنهور ، الحق أنه لم يطلعني على حال من أحواله أين هو اليوم ، ماذا يعمل ، أهو أعزب أم متزوج ؟، الله وحده يعلم ..
- فلوح بيده كالغاضب وقال :
- وكيف يراد مني العثور عليه ؟
- ليس ذلك يسيرا بطبيعة الحال ولكنه ليس بالحال ، وأنت لك معارف من ضباط البوليس والمحامين ، وليس من شخصية كبيرة إلا ولها في القاهرة مقام ..
- أخشى أن ينفد مالي قبل العثور عليه ..
- لذلك يجب ألا تتوانى عن البحث ..
- وتفكر قليلا ثم سأل :
- وهل يستحق يا ترى كل هذا التعب ؟
- بلا أدنى شك يا بنى ، ستجد في كنفه الاحترام والكرامة ، وسيحررك من ذل الحاجة إلى أى مخلوق بما سيهيء لك من عمل غير البلطجة أو الجريمة ، فتظفر آخر الأمر بالسلام ..
- وإن وجدته فقيرا !.. ألم تكوني أنت غنية لا يحيط بثروتك حصر ؟.
- أو كذلك أن المال ليس إلا حسنة من حسناته ، وقد كنت غنية حقاً ولكني لم أهيبك لك كرامة ولا عملاً ولا سلاماً ، وكنت تسير ملوحاً بلكمته لتخرس الألسنة المتوثبة للنيل منك ومن أمك ..
- عاد إلى التفكير فخيّل إليه أنه يحلم ، ثم سأها :



شيء يعدنني بأنه حي وبأنك إذ لم
تيسأ ولم تتوان فسوف تعثر عليه

— هل تؤمنين حقا بأننى سأعثر عليه ؟
 — شئ يحدثنى بأنه حى وأنتك إذا لم تياس أو تتوان فسوف تعثر عليه ..
 هز رأسه وهو بين الحيرة والياس وتمتم :
 — هل حقا أمضى للبحث عنه ؟. وإذا علم أعدائى بهذه الحكاية أفلن يجعلوا
 منى نادرة جنونية ؟!
 — وماذا يقولون إذا وجدوك آخر الأمر قوادا ؟ الحق أنه لا خبرة لك فيما
 أنت ذاهب إليه ..

أغمضت عينها بعد ذلك وغسغت «إلى تعبى جدا» فرجاها أن تنام على أن
 يستأنفا الحديث غدا. وخلع حذاءها ثم غطاها ولكنها أزعجت الغطاء عن صدرها
 بحركة عصبية فلم يعده، ومالبت شخيرها أن تردد. واستيقظ حوالى التاسعة من
 صباح اليوم التالى بعد ليلة سهاد ممزقة بالفكر. وذهب إلى حجرتها ليوقظها
 فوجدها ميتة. ترى هل ماتت وهى نائمة أو أنها نادته آخر الليل فلم يسمع ؟. على
 أى حال وجدها ميتة وهى لم تنزل بالملابس التى غادرت بها السجن. وما هو الآن
 يتفحص بعناية ودهشة صورة الزفاف. الصورة التى جمعت بين والديه منذ
 ثلاثين عاما. وما هو يركز بصره على صورة أبيه، على وجهه بالأخص. شاب
 جميل حقا، مفعم بالشباب والحيوية، ونظراته تفيض بالاعتداد بالنفس، ووجهه
 المائل للبياض، المستطيل الممتلئ، ذو الجبهة العالية، والطربوش المائل إلى اليمين، لا
 يمكن أن ينسى. ولم تكذب أمه حين قالت إنه صورة منه ولكنه كما يكون القمر
 على الورق صورة من القمر فى كبد السماء.

وفى شقة الجيران أخذ المدعوون يتوافدون وأنغام الموسيقى تترامى ، هذا
 صوت القرآن يتلى فى غرفة المرحومة . والآن أين هى الحقيقة وأين هو الحلم ؟.
 أملك التى ما تزال نبرتها تتردد فى أذنك قد ماتت ، وأبوك الميت يبعث فى الحياة .
 وأنت المفلس المطارد بماض ملوث بالدعارة والجريمة تتطلع بمعجزة إلى الكرامة
 والحرية والسلام .

ليبق الأمر سرا ، وإذا خاب مسعاه فليستن بمعارفه ، وليبدأ بالإسكندرية فهذا طبيعي جدا ، وإن يكن من المستبعد أن يقيم بها شخص كأبيه ولا تدرى به أمه . واتخذ من دليل التليفون دليله ، حرف السين ، سيد ، سيد ، سيد .. حتى استقرت عيناه على سيد سيد الرحيمى . آه لو يدلله الحظ ويعفيه من متاعب لا يدرى مداها أحد . سيد سيد الرحيمى صاحب مكتبة المنشية . أين هذا من جاه أبيه ؟ والمنشية كانت معبداً لأمه طيلة ربع قرن من الزمان ، ولكن لعله يجد فى الاسم مفتاحاً للغز . ووجد صاحب المكتبة فى الخمسين من عمره ، وذا سحنة لا تمت بسبب إلى صورة أبيه ، وأخبره أنه يبحث عن سمي له وأطلعته على صورته مخفياً صورة أمه ، وقال الرجل :

— لا أعرف صاحب هذه الصورة .

ولما أوضح له أنها صورة التقطت منذ ثلاثين عاماً قال :

— ولا أذكر أى رأيت ..

— ألا يمكن أن يكون قريباً من بعيد ؟

— نحن فى الأصل من الإسكندرية ، وجميع أهلى يقيمون هنا عدا بعض

أقارب فى الريف من ناحية الأم ، ولكن ما سبب بحثك عنه ؟

وارتبك لحظة ولكن سرعان ما أجاب :

— إنه صديق قديم للمرحوم أبى ، أليس للرحيمى فروع فى بلاد أخرى ؟

وتفحصه بنظرة لم تخل من رية وقال :

— الرحيمى هو جدى ، ولا ينتسب إليه من أسرتنا إلا أنا وأختى وليس لنا

فروع من ناحيته خارج الإسكندرية .

ولا سبيل إلى الصبر أو الطمأنينة لمن لم يعد يملك سوى مائتين من الجنيهات .

وهى تتناقص بمرور الساعات ولا أمل بعدها فى حياة كريمة . ومرضت عيناه من التفحص المركز للوجوه وأعياء القلق . ولجأ إلى محام من معارفه يشاوره فقال له :

— لعل له رقم تليفون سرى ..

وتطوع لمعاونته فى الكشف عنه دون نتيحة ، ثم قال له :

— اسأل مشايخ الحارات ..

فقال صابر بإنكار :

— إنه وجيه بكل معنى الكلمة ..

— إن ثلاثين عاما خليقة بأن تفعل الأعاجيب ، بل فى نيتى أن أكلف صديقا

من ضباط البوليس ليتحرى عنه فى السجون !

— السجون ؟!

— لم لا ؟، السجن كالجامع مفتوح للجميع ، وأحيانا يدخله إنسان لنبل فى

أخلاقه لا لاعوجاج .

وضحك المحامى ضحكة مقتضية ثم قال :

— ولكن لنبدأ بالشهر العقارى فلعله من الأعيان المتخفين .

— ولم يكن فى كشف السجون اسمه ولا فى سجلات الملاك فلم يجد مفرا من

اللجوء إلى مشايخ الحارات . واستبدل إلى حين اقتراحا للمحامى بالإعلان فى

الصحف إذ أن ذلك يذيع مشكلته العجيبة على الملأ ويمكن أعداءه الكثيرين فى

الإسكندرية من العبث به فأجل تنفيذ الفكرة إلى ما بعد مغادرة المدينة . ودار

على مشايخ الحارات من العطارين إلى كرموس ، ومن رأس التين إلى محرم بك .

وكلما ذكر اسم سيد سيد الرحيمى سئل :

— عمله ؟!

— لا أدرى عنه شيئا إلا أنه من الوجهاء وهذه صورته منذ ثلاثين عاما .

— ولم تبحث عنه ؟

— إنه صديق قديم لأبى وقد كلفت بالبحث عنه .

وتحديق فيه الأعين باستغراب :

— وهل أنت متأكد من أنه حى ؟

— لست متأكدا من شيء .

— وكيف عرفت أنه فى الإسكندرية ؟

— مجرد أمل ليس إلا .

ثم يجيبه الجواب النهائى كجدار السجن :

— غير معروف عندنا .

ولم ترتح عيناه لحظة واحدة من التهام الوجوه ، ولم يشعر فى دوامة الاستطلاع بخطى الخريف حتى أيقظه مطر مباغت عند لسان الكورنيش الموغل فى البحر فانسحب مسرعا إلى الميرامار ، ورفع عينيه إلى سماء أظلت جو الظهيرة بقطع من الليل . وسمع صوتا يقول مرحبا :

— تعال .

صافحها وجلس .

— لم أتمكن من تعزيتك ولكنى انتظرت أن تزور « الكباريه » .

— أألس فى حداد ؟

— الكنار مكان مناسب للمحزونين ، والجميع يتساءلون أين أنت ؟

وتوقف المطر فوقف من فوره معتذرا بمشاغل فقالت بدورها هامة :

— خبرنى هل أنت فى ضائقة مالية ؟

آه هل بدعوا يتقولون ؟. وقالت بإغراء :

— مثلك لن يعز عليه المال إذا أراد !

فصافحها مرة أخرى ببرود ثم ذهب . مثلك لن يعز عليه المال . أجل فأذعن

لنداء القوادة . ذلك ما يتمناه أعداؤه ولكن دونه الموت . وتساءل ماذا بقى فى

الإسكندرية ؟.

— ٢٠ —

وبسط راحتيه أمام قارئ الكف ولكنه لم يقل جديدا . وزار العارف بالله
سیدی الشيخ زندی بعطفه الفراشة . تربع بين يديه في حجرة تحتانية مغلقة
الشيخ دواما فهي تعيش في مغيب متصل وتتلوى في جوها سحائب البخور .
وشم الشيخ منديله ثم أحنى رأسه مستغبرا ثم قال :
— من جد وصل ..

وترامى إليه هدير الموج من الأنفوشي فقال بأمل « بداية حسنة » وقال
الشيخ :

- وتعب كليالي الشتاء .
- اليوم بسنة وكم هو باهظ التكاليف .
- وستنال مطلوبك .
- وفي جزع سأله :
- ما مطلوبى ؟
- إنه ينتظرك بفارغ الصبر .
- هل يدري بى ؟
- إنه ينتظرك .
- لعل أمه لم تقل له كل شيء .
- إذن هو حى .
- الحمد لله .
- وأين أجده فهذا ما يعنينى حقا ؟
- الصبر .
- لا يمكن الصبر إلى ما لا نهاية .
- أنت فى البدء .
- فى الإسكندرية ؟
- أغمض الرجل جفنيه ثم تتم :

— أبشرك بالصبر .

وقطب مغتاضا ثم قال :

— لم تقل شيئا .

فقال الشيخ محولا عنه رأسه :

— قلت كل شيء .

وخرج إلى جو عاصف تركض فيه السحب مثقلة بالظلمات . وقال
دجالون وعاهرات والنقود تبعثر بلا حساب . وعزم على بيع أثاث شقته تمهيدا
للسفر إلى القاهرة .

وكان قد باع التحف الرشيقة في محنته ليواجه بشمنها نفقات معيشته الخيالية .
وكره دعوة السماسرة إلى شقته فقصد المعلمة نبوية صديقة أمه الحميمة
والشخصية الوحيدة التي لم يكرهها في ذلك الوسط . وقالت وهي تقدم خرطوم
النارجيلة :

— سأشترى أثاثك على العين والرأس ولكن لماذا تهجر بلدك ؟

— سأشقى لى طريقا فى القاهرة بعيدا عن الخلق !

— الله يرحم أمك ، أحبتك ودلتك فسدت فى وجهك سبل الرزق !

وأدرك ما تعنيه فقال :

— لم أعد أصلح لهذه المهن !

— وماذا تفعل فى القاهرة ؟

— صديق هناك وعدنى خيرا .

قالت باسمه عن ثغر ذهبي :

— أعمالنا لا تشين إلا المغرورين ، طاوعنى !.

فبصق فى موقد كبير ينفث بخور الهند .

وتعلق بصره بالإسكندرية والقطار يرج الأرض مبتعدا . رآها مدينة
الأطياف مغروسة فى حلم الخريف تحت مظلة هائلة من السحب ، وهواء بارد

مبعق بمطلع نوفمبر يجوب شوارعها الأنيقة شبه الخالية . وودعها هي وأمه وذكريات ربع قرن من الزمان بزفرة طويلة ساخنة . وكيف يكون الحال لو أن من تبحث عنه قد خلفته وأنت لا تدري في ركن من الإسكندرية لم يبلغه مسعاك ؟ . ومن ضمن لك أن يكون حظك في القاهرة خيرا منه في الإسكندرية ؟ . كم في البحر من أمواج وكم في السماء من نجوم . وعجيب أن يكون بعيدا هذا البعد كله من تحمل روحه وجسده بين جنبيك . وما أبعدك عنه إلا شهوة عمياء انتزعتك من أحضانه لتلدك في مأخور . وكان يسألها عن أبيه فتجيبه « كان موظفا محترما ورجلا طيبا ولكنه مات في ريعان الشباب » ، وأهله أليس له أهل ؟ فتجيبه « لا أعرف له أهلا ! » . لذلك ظن طويلا أنه ابن رجل من البلطجية وأنه ابن زنا . وأنت اليوم وحيد بلا أهل ولا أصدقاء كأنك جنس غريب . وهاله الزحام في محطة مصر فألح عليه شعوره بالوحدة .

ونازعته نفسه إلى العودة في أول قطار ولكنه أودع حقيبته الأمانات ثم خرج إلى الميدان والشمس تميل ميلا العصر . ودار رأسه مع السيارات والبصات والعابرين . وترامى الميدان في غاية من الاتساع وبلا شخصية ، وتقابل فوق أديمه متناقضات من أشعة حامية وهواء لطيف ، وشوارع مزدهرة وأخرى خربة . وقضى ساعة وهو يبحث عن فندق رخيص في الميدان وما حوله حتى وجد نفسه في شارع الفسقية ذى البواكى أمام فندق « القاهرة » . وقف على الطوار المسقوف المقابل للفندق على كئيب من شحاذ مستلق لصق الجدار يتغنى بمديح نبوى . وانعكس عليه من الشارع طابع عمل ودمامة وضجر لكثرة الدكاكين على الصفيين وعربات النقل وأكوام البضائع ولكنه أمل أن يجده أرخص فندق في الناحية . وهو مبنى قديم ، تراى الجدران ، مكون من أربعة أدوار وعلية فوق السطح ، وذو باب مرتفع مقوس الرأس كوجه باك ، يفتح على مدخل مستطيل ينتهى إلى السلم ويتوسطه مكتب جلس إليه رجل إلى جانبه امرأة . الرجل طاعن في السن أما المرأة .. رباه إنها فتاة في عز الشباب تشد عينيها



قالت باسمه : أعمالنا لا تشين إلا المغرورين ، طاوعنى!

بقوة ليست بلا سبب . إنها توقف مشاعر نائمة وتنبه ذكريات مدفونة في الضباب . العطفة المبلطة الصاعدة من الأنفوشي المشبعة بهواء البحر ورطوبته المألحة وانفعالات الجنون الملقعة بالظلام . وسرعان ما توثقت علاقات خفية بينه وبين الفندق كأنما جاءه على ميعاد ووجد نفسه يعبر الطريق نحوه مدفوعا برغبة في الاستطلاع والكشف وإن يكن غير مصدق لظنونه تماما ، وصوت الشحاذ يتردد عاليا في نبرة أعجبه :

طه زينة مديحي صاحب الوجه المليحي

النصارى واليهود

أسلموا على يديه

السمرة الرائقة النقية ، والعينان اللوزيتان الدعجوان ، وبريقهما المضئ المقعم بالنبيض والاقترحام . أين من هذا القطعة المهزولة ذات الثوب الباهت الواحد وأظافرها الجارحة ؟ . إنها تذكره بها بعنف تاركة له تخيل ما صنع الزمن في عشر سنوات أو يزيد . والاسم القديم ضائع كأبيه ، ولكن رائحة البحر تملأ خياشيمه وها هو يرتجف لتذكر الليل البهيم ، ورغم ذلك كله فقد ظل أبعد ما يكون عن اليقين . وبنت العطفة ذكرى عابرة لا قيمة لها ولكنها تبعث الآن في صورة فريدة ذات سطوة خطيرة الشأن كبعث أبيه من الموت الذي جاء به من البحر إلى هذه المدينة المثيرة . استقبلت الفتاة القادم بنظرة قطيرة ولكنها متغلغلة ثم أدارت وجهها نحو استراحة الفندق إلى يمينها . ووقف صابر أمام المكتب والعجوز عاكف على دفتر يطالعه من خلال عدسة مكبرة يمسك بمقبضها المعدني الصغير بيد مرتعشة .

ولم ينتبه العجوز إلى القادم لشيخوخة حواسه فيما بدا فأدام الشاب النظر إلى عارض الوجه الذى شغله ، مكتشفا آيات تؤكد ظنونه وآيات تبددها ، ثم تحول الوجه إليه بنظرة ناقدة لاتهازيتة فربتت على ساعد الرجل لتنبه ، وعند ذلك بادره صابر قائلا :

— مساء الخير يا والدى !



استقبلت الفتاة القادم بنظرة قصيرة ولكنها متغلغلة

رفع الرجل إليه وجهه ويده لا تكف عن الارتعاش . وهو وجه من الصعب التنبؤ عن صورته الأصلية إذ اختفى أديمه تحت قناع من الأخاديد والتجاعيد ، وبرز أنفه مقوسا حادا مجدورا ، واحتارت في عينيه الناضبتين نظرة باهتة ممصوفة كأنما لم تعد تعنى برؤية العالم ، وقال صابر :

— إني أسأل عن سعر الحجرة ..

— ريال في الليلة ..

— ولمن يقيم أكثر من أسبوعين ؟

— الريال عملة لا قيمة لها اليوم ..

— قد أقيم شهرا أو أكثر تبعا لمشية الله .

فأمسك الرجل عن الكلام لإعراضا عن المساومة وهنا رأى صابر طربوشه الطويل الغامق لأول مرة ، وتمتم :

— كما تشاء .

وراح يملئ عليه الاسم والمكان الذى جاء منه ولما سئل عن عمله أجاب :

— من الأعيان !

وقدم له بطاقته الشخصية . وجعل يسترق النظر إلى الفتاة طوال انشغال العجوز بالبطاقة .

والتفت عيناها مرة ولكنه لم يقرأ فيهما المعنى الذى يتلهم عليه . وبسبب انفعاله وحده راح يقنع نفسه بأنها هى .. ولفحه هواء البحر فى الركن المظلم وهو نصف عار ، وملأت أنفه رائحة القرنفل المنبعثة من الشعر المبعثر . وتأمل بشعور تفاؤل عجيب فقال إنه على نحو ذلك سيكثر على أبيه . والمؤكد بلا أدنى شك أن هذه الفتاة على استعداد لشيء ما . إنها تقف منه موقفا حياديا فى الظاهر ولكنها تخاطب ماضيه وأعماقه بألف لسان . ولا شك أن وراء هذه القشرة الناعمة الصامته اللامبالية مدينة مسحورة . ولو كان الظرف غير الظرف لدعاها إلى الرقص واحتواها بين ذراعيه وقال لها بكل جرأة كيف يرضى بالعيش تحت

هذا القبو من ترطب جسده بهواء البحر في عطفة القرشى . ورد العجوز إليه البطاقة قائلا :

— إذن فأنت من الإسكندرية ؟

فهز رأسه بالإيجاب مبتسما فغمغم الرجل بكلمات مبهمة ، فقال بمكر راميا الفتاة بنظرة سريعة :

— أراهن على أنك تحب الإسكندرية !

وابتسم جانب فم العجوز وحده ، وعلى خلاف توقعه أضربت الفتاة عن متابعتها فشعر بخيبة ، ثم خطر له أن يسأله :

— هل عرفت يوما سيد سيد الرحيمى ؟

فضيق الرجل عينيه ثم قال :

— غير مستبعد أنى سمعت عنه ..

تركز صابر في اهتمام أنساه كل شيء حتى الفتاة نفسها :

— متى وأين ؟

— لا أذكر ، لست متأكدا ..

— لكنه من كبار الوجهاء ..

— عرفت كثيرين منهم ولكنى لم أعد أذكر أحدا ..

ومع أنه أثر ألا يزيد إلا أنه تهادى في التفاوض وقال إنه غير بعيد أن يهتدى إلى مكان أبيه اليوم أو غدا . والتقط في اللحظة المناسبة نظرة من عيني الفتاة قبل أن تستردهما . قرأ فيها شكا وما يشبه السخرية وكأنها تتسائل عما دعا هذا الوجه إلى النزول بفندقها المتواضع . ولم يضايقه ذلك وقال إن الحقيقة ستجلى عندما تعرف مهمته وسوف تعرف عاجلا أو آجلا . ترى هل تذكرته ؟ . وشعر بغرز الأظافر في ساعده عقب المطاردة البارعة التى بدأت من ساحل الصيادين بالأنفوشى واستقرت في الركن المظلم بعطفة القرشى ، ولفح هواء البحر بدعابته القاسية نصفه العارى . ولكن أين كان أبوها في ذلك الوقت ؟ ، ومتى انتقل إلى

إدارة هذا الفندق ؟! ونادت المرأة قائلة :

— عم محمد يا ساوى .

فجاء عجوز من مجلسه عند الباب ، عميق السمرة مائل للقصر دقيق الجسم تتكون ملابسه من طاقية بيضاء وجلباب رمادى مقلم ومركوب ، فأشارت المرأة إلى صابر قائلة :

— حجرة رقم ١٣ .

ابتسم صابر لدى سماعه الرقم ، ثم استأذن في الذهاب لإحضار حقييته ، ولما عاد تبع عم محمد الساوى إلى الحجرة فى الدور الثالث . وغادرها الرجل ثم دخل خادم يحمل الحقيبة . خادم بين الشباب والكهولة ، سريع الحركة بدرجة لا تتناسب مع العمل الذى يؤديه ضيق العينين جدا مستديرهما ، صغير الرأس ، يوحى منظره بالسذاجة . وسأله عن اسمه فأجاب :

— على سريقوس .

وأنس فى نبرته امتنانا بدرجة أشعرته بالقدرة على امتلاكه وقتا يشاء ، وسأله :

— هل العجوز الجالس إلى المكتب هو صاحب الفندق ؟

— نعم . عم خليل أبو النجا ..

وهم بسؤاله عن الفتاة ولكنه كبح رغبته عن حكمة إلى حين ، وحذر نفسه قائلا : إن السذاجة سلاح ذو حدين !. ولما خلا له المكان شمله بنظرة سريعة فتركت فى نفسه انطبعا بالقدم . السقف العالى والسرير ذو الأعمدة والكنصول ، وقال إن أباه كان يعجب بهذا المنظر حينما أحب أمه . ودلف من نافذة عالىه وأطل على ميدان صغير فى الطرف الشمالى من الشارع ، تتوسطه فسقية تعج نافورتها رذاذا على غلمان مهللين . وأضاء المصباح ثم جلس على كنبه تركية قديمة . وراودته أخيلة جنسية . وتخللتها أحلام بالعثور على أبيه . أما نداء العينين اللوزيتين المضيتتين فعجيب كل العجب . ولعلها الآن تفكر فى أمره

وتساءل ولكن ليس ثمة ما يقطع بأنها هي هي . في زحمة المولد نهفته قائلة لا تقرب مني هكذا ، فقال متظاهرا بالكبرياء : لم تقلها بنت قبلك . فأجاب بكبرياء أشد : ولكني أقولها وأعيدها . وذهبت في صحبة امرأة شرسة والهواء يلعب بصفيرتيها فأين كان عم خليل ؟! . وعيناك اليوم التقت بعينيها أكثر من مرة وتجلت معان ، ولكن لم يلتصق بينهما ما يوحى بذكريات مشتركة . لم تقل عيناها لأنها تذكر المجلس فوق سور الكورنيش عند قوارب الصيد المقلوبة . والأحاديث المفتعلة للتستر على الرغبات الجائعة . وقبله خطفت أعقبها معركة غير حامية . وعندما أعييتك الحيل صحت سأقتلع يوما أظافرك . أما يوم المطاردة الرائعة وصراع الركن المظلم وشذا القرنفل والهواء المشبع برائحة البحر فكانت نصرا صريحا ، ثم تلاه اختفاء وصمت ، لا هي ولا الأم الشرسة ، وأسف دام طويلا ، حتى انتقلت أمك من حال إلى حال واستقر بك المقام في الشقة الأنيقة بالنبي دانيال . من أدراك أن لهذا الفندق علاقة بعطفة القرشي ؟! . وأن هذه الفتاة المثيرة هي تلك البنت القرنفلية ؟! . على أي حال فهذه الفتاة تثير عاصفة في دمك . وفي سواد مقلتيها ترى الليالي المعربة بأنغامها الجنونية . وما أحوجك إلى دفء الشهوة المعزية في فترات الراحة من البحث ، وقيمة ذلك تتضاعف للوحيد الذي لا أهل له ولا صاحب له . وعندما تجيء المعجزة ستقول له :

— أنا صابر ، صابر سيد سيد الرحيمي ، هاك شهادة الميلاد ، وهاك شهادة الزواج ، وانظر جيدا في هذه الصورة ..

عند ذاك سيفتح لك ذراعيه وتنجاب عنك الوسوس إلى الأبد . وصرت امرأة أنيقة بكل معنى الكلمة ، أين البنت المغطاة بملح البحر ؟. أين رائحة غفلة العذراء ؟!

استيقظ مبكرا بعد ليلة لم ينم فيها سوى ثلاث ساعات . ووجد رغم ذلك نشاطا لم يحلم به من قبل . وفتح النافذة فلم ير المنظر الذى فى غفلة توقعه ، منظر عمارات النبى دانيال وسعد زغلول وزرقة البحر على مرمى البصر وهواء الإسكندرية العامر بالفتن . رأى سماء ملفعة بالسحب السمراء ، وفى الأفق الشرقى نضح الستار بياض ناصع ، وعلى الأرض الخالية سعى فوج من العمال والباعة ، وفى لحظة واحدة تجلت لمخيلته صورة أبيه والوجه الدافئ المغمم بالإثارة ، وجاءه على سريقوس بالفطور إلى حجراته فأكل بشهوة عظيمة ، ولما رجع الخادم ليحمل الصينية الفارغة سأله :

— من الفتاة التى كانت تجلس إلى جانب عم خليل أمس ؟

— زوجته !

ليعترف بأن هذا لم يجر له فى بال ، وكم بدا له مزعجا :

— من الإسكندرية ؟

— لا أدرى ..

— متى امتلك عم خليل هذا الفندق ؟

— لا أدرى ، إني أعمل هنا منذ خمس سنوات فقط .

— وهل كان وقتذاك متزوجا .

— نعم ..

. هى بنت عطفة القرشى . اشتراها العجوز هناك من المرأة الشرسة . وصنع منها امرأة حسناء طاغية ، ولكن عليه هو أن يتفرغ لمهمته قبل أن ينقذ آخر ما يملك من نقود . ووجد عم خليل أبو النجا بمجلسه وراء المكتب وهو يحادث عم محمد الساوى الجالس إلى يمينه . ولمح فى طريقه نفرا من التزلاء يجلسون فى

الاستراحة ما بين تناول لفطوره وقارئ لجريدة . جاء بكرسى أمام المكتب ثم جلس رافعا يده بالتحية وهو يقول :

— عن إذنك دليل التليفون .

وفر الصفحات حتى عثر على حرف السين . سيد . سيد سيد .. وسيد سيد الرحيمى ! . وخفق قلبه بقوة . هذا هو فى مدينته . ليس كصاحب مكتبة المنشية . والمهنة ؟ . طيب بميدان الأزهار وأستاذ بكلية الطب . كما يحدث للوجهاء وأبناء الوجهاء . واستخفه فرح فتمتم :

— الظاهر أن ربنا سيرضى عنى ..

فنظر عم خليل بعينه المذكرتين بالآخرة فقال :

— الظاهر أنى سأنجح فى المهمة التى جئت من أجلها من الإسكندرية .
فغمغم العجوز :

— جميل أن ينجح إنسان .

كما نجحت فى شراء الفاتنة ! . ورآه ما زال ينظر إليه مستطلعا فقال :

— إنى أبحث عن رجل هو كل شئ فى حياتى .

فدعا له محمد الساوى قائلا :

— ربنا يحقق مقاصدك .

وقال عم خليل أبو النجا .

— لا يجرى أحد إلى هذا الفندق للإقامة ولكن مهمة تستغرق ليلة أو أسبوعا

أو شهرا ثم يمضى إلى حال سبيله .

— هذا طبيعى جدا .

— ولذلك فهم يتجاوزون فى الغرف والموائد والاستراحة ويندر أن يعرف

أحد منهم الآخر .

— يخيل إلى أن عملك مسل جدا ؟

— لا شئ مسل على الإطلاق !

ومغالطة الزمن أليست مسلية ١٩. وسمع وقع حذاء نسائي فأجل قيامه الذى هم به . وجاءت الزوجة مدملجة الجسم فى جونا سوداء وبلوزة حمراء مطوقة الرأس والخدين بإشارب أبيض منمنم . ووشى خطرانها باكتنار سوى هو الوسط المثالى بين النحافة والبدانة ، فسرعان ما ثمل أنفه بعبير أنثوى مسكى عصف بعقله وقلبه ، وهى وإن لم تبتسم إلا أن عينيه عكستا نظرة راضية موحية كأرض خصبة لم تزرع بعد . ونهض عم محمد الساوى وهو يحبك معطفاً رمادياً قديماً ، أما عم خليل فقد رفع إليها وجهه متمتما :

— نويت بالسلامة ؟

فقال بصوت حلقى دسم :

— فتك بعافية .

ومضت إلى الخارج يتبعها عم محمد الساوى . أنت سر من الأسرار يا عم خليل . ووجهك يصلح رمزا للموت كعلم القرصان . ولم يرتكب أناس الأخطاء بلا تبصر ؟ . وقام متظاهرا بالهدوء فحيا الرجل وغادر الفندق . وسبقته عيناه إلى كافة أنحاء الطريق حتى رأى المرأة والعجوز يميلان مع ميدان الفسقية فأسرع فى مشيته حتى لحق بهما . والتفت عم محمد نحوه فابتسم كالمعتذر وقال :

— لا تؤاخذنى يا عم محمد ، أود أن أعرف الطريق إلى ميدان الأزهار ؟ .

والتفت نحوه المرأة فى شئ من الدهشة . ووقف عم محمد ليصف له طريق الوصول فاضطرت المرأة إلى الانتظار . وتظاهر بالإنصات إلى كلام عم محمد دون أن يعى منه كلمة ، وكلما وجد فرصة آمنة حدى المرأة بنظرة فتتلقاها بالرضى الهادئ المثير للطموح بلا دليل . انتهى من شرحه فشكره ثم ذهب . ترى أين هى ذاهبة مع كلب الحراسة ؟ . وألم تكن جراته سابقة للأوان ؟ . إنه دائماً جرى غير أن الجرة هذه المرة قد تفسد عليه البحث أو تعرقله . وبلغ ميدان الأزهار مستعينا بالمارة ولم يجد فى العيادة سوى الترحى . وأخبره الرجل أن الطبيب يحضر عادة حوالى الثانية عشرة فجلس لينتظر . هل ترددت أنفاس أبيه

في هذه الشقة ؟. ها هو القلق يساوره والجزع . والأمل واليأس . وكلما تقدمت الساعة قل صبره . وإن وجد أباه حقا فكيف يكون موقفه منه ؟. كيف يتصرف أن أنكره أو طرده ؟. ولكنه سيستमित في الدفاع عن حقوقه ، ولذلك تبدى في أحسن مظهر ، ولم يخف عليه أن التمرجى رmqه باحترام وإعجاب !. ولكنه تذكر أنه لعجلته واضطرابه لم يعرف اختصاص الدكتور !. وخرج من حجرة الانتظار إلى الصالة فجلس في قبالة التمرجى وسأله :

— من فضلك ما اختصاص الدكتور ؟

— القلب !.. حضرتك طبعا ..

— أردت أن أتأكد ، أصلى من الإسكندرية !

وشعر بسخافة أسئلته ولكنه لم يبال ، بل عاد يسأله :

— هل عندك فكرة عن عمره ؟

فأجاب الرجل مندهشا :

— لا أدري عن ذلك شيئا !

— ولكنك تفرق ولا شك بين الشباب والكهولة !

— إنه أستاذ بالكلية !

— وهل هو متزوج ؟

أعلن التمرجى عن مدى استغرابه بضحكة ثم قال :

— متزوج وأب ، وله ابن طالب بالكلية ..

عقبة وأى عقبة تعترض أمله في القبول ، وسيكون للأسرة رأى في العضو الجديد القادم من ماخور ولا مؤهل له غير جماله المبذول للفجور . ولكن إصراره بلغ المنتهى . وجاء المرضى تباعا حتى امتلأت الحجرات . ثم دعاه التمرجى إلى حجرة الكشف . ونفخ سحب القلق والوساوس ودخل . رأى وجهها لا يمكن أن يرجع بحال إلى أصل الصورة التي يحملها ولكن من يتصور أن أمه — في آخر ليلة لها — يمكن أن ترجع إليها ؟. وجلس أمام مكتب الدكتور وراح يجيب على

— ٣٤ —

أسئلته التي شرع في تدوينها في دفتر كبير :

— اسمي صابر سيد سيد الرحيمي .

ضحك الدكتور قائلاً :

— عال : أنت إذن ابني ، وما عمرك ؟

— الواقع أنني لا أشكو مرضاً على الإطلاق !

فحدجته بنظرة متسائلة فقال :

— إني أبحث عن سيد سيد الرحيمي ..

— عني أنا ؟!

— لا أدري ولكن تفضل بالنظر في هذه الصورة !

تفحصها الدكتور ثم هز رأسه بالنفي .

— ليست صورة حضرتك ؟

ضحك قائلاً :

— بالتأكيد لا ، ومن هذه الفتاة الجميلة ؟

— أليس لأحد من أقربائك ؟ لاحظ أن تاريخها يرجع إلى ثلاثين عاماً

مضت ..

— ولا هي لأحد من أقربائي .

— حضرتك من أسرة الرحيمي ؟

— والدي سيد الرحيمي ، كان موظفاً بالبريد .

— أليست للأسرة فروع لم تعرفها ؟

— أسرتي محدودة أصلاً وفرعاً !

قام يائساً وهو يقول :

— آسف على إزعاجك ، ولكنك ربما سمعت عن أحد الوجهاء بهذا

الاسم ؟..

— لا أعرف وجيهاً بهذا الاسم ، ولكن ما الحكاية بالضبط ؟

— الحكاية أنى أبحث عن وجيه يدعى سيد سيد الرحيمى ، صاحب هذه الصورة منذ ثلاثين عاما .

— لعله هنا أو هناك وأنا على أى حال لست مرجعا فى هذه الشئون .
وقضت نبراته بإنهاء الحديث فحياه وانصرف . دخل أول قهوة صادفته فجلس إلى البار ثم طلب براندى . ها هو يبدأ من جديد . وما إغراء دليل التليفون إلا خدعة سخيفة . وتبدد التفاؤل الوهمى الذى اجتاحه منذ رأى زوجة عم خليل . وتذكر سلسلة الأبحاث التى قام بها فى الإسكندرية من الشهر العقارى ومشايخ الحارات وأولياء الله ولكنه يحتاج لإعادة ذلك إلى مرشد ولا أحد له فى القاهرة . لذلك استحسن أن يبدأ بالإعلان ولعله أرخصها وأسهلها وأجداها . ونظر إلى الساقى العجوز وسأله :

— ألم تسمع عن سيد سيد الرحيمى ؟

— دكتور فى العمارة التالية .

— كلا ، أعنى الوجيه سيد سيد الرحيمى ؟

ردد الخواجا الاسم كأنه يلوكة فى ذاكرته ثم قال :

— لا أذكر زبونا بهذا الاسم .

— ألم يحدث لك أن بحث عن شخص وأنت تجهل مقامه ؟

أجاب وهو يمد بصره إلى لا شئ :

— ابن مفقود من أيام الحرب !.

هز صابر رأسه معلنا عن أسفه ثم قال :

— ولكن الحرب انتهت وعرف مصير كل من اشترك فيها .

— أن أعتبره مفقودا خير من التسليم بموته !

وسأل الخواجا عن موقع جريدة أبو الهول فوصفه له بميدان التحرير . ذكره ميناها الأبيض المربع ، والفناء الذى تتوسطه فسقية بفيللا ثرى يونانى بالأزراطة . ومضى نحو الباب الداخلى فرأى فتاة واقفة على عتبة وما لبثت أن

أشارت إليه . دهش صابر وأحد إليها بصره ولكن ساعيا مرق من جانبه متجها نحوها فأدرك أن الإشارة لم تكن له ، وسلمها الساعى شيئا ثم اختفى وراء الباب ، ووجد صابر نفسه أمامها ، رشيقة نخيلة ، لفت انتباهه فى وجهها تناقض محبوب جمع بين سمرة البشرة وزرقة العينين ، وتكوين الرأس والوجه غاية فى الأناقة والبداعة ، انبعث إليه منه شعور بالجذب والطمأنينة ، ثم استعاد نشوة نبيذ بتافرنا وهو يسمع عزف كان . وحياتها باسمها ثم سألها عن قسم الإعلانات فقالت بصوت رقيق موحى بالثقة بالنفس :

— أنا ذاهبة إليه .

ولحظها منقبا عن مواضع للإثارة ولكن طرفه رد ممتلئا بالإعجاب وحده . ودخلا الإدارة فأشارت إلى رجل فى الصدر حمات لافتة مكتبه اسم « إحسان الطنطاوى » فحياه ، ثم دعاه الرجل إلى الجلوس على كرسي بين مكتبه ومكتب الفتاة التى جاءت به . وأبان صابر عن مقصده قائلا إنه يرغب فى الاهتمام إلى شخص يدعى سيد سيد الرحيمى ، فتساءل الرجل :

— دكتور القلب ؟

فأجاب بالنفى ، وتوقع أن يسمع منه مزيدا عن الشخصيات التى تحمل هذا الاسم ولكنه لم يفعل ، فقال :

— فى الحق أننى لا أعرف سوى اسمه ..

— أليس لديك فكرة عن عمله أو مكانه ؟

— كلا ألبتة ، كل ما أعلمه عنه أنه من الوجهاء ، محتمل أن تكون له مهنة تناسبه ولكنى لم أجد فى الدليل إلا الدكتور .

— قد يكون رقمه سرى ، وقد يكون من أعيان الريف ، وعلى أى حال فالإعلان أو جز سبيل إليه .

— ليكن إعلانا صغيرا بقدر الإمكان ، ويوميا لمدة أسبوع ، فى شكل دعوة للاتصال بى بفندق القاهرة سواء بالمراسلة أو بالتليفون .

— لا بد من ذكر اسمك في الإعلان .

وفكر بسرعة وقلق ثم تتم :

— صابر سيد .

ولم تتحقق مخاوفه فراح الرجل يخطط صورة للإعلان فلاحظ صابر أن الفتاة تتابع حديثه فلم يشك في أن غرابة الإعلان هي التي أغرتها بذلك . ورأى ثمة مكاتب أخرى يجلس إليها موظفون وموظفات ، وعرف اسم الفتاة « إلهام » وهي تخاطب به ، وسمع إحسان الطنطاوى يسأله :

— ألا تشير إلى الغرض من إعلانك ؟

— كلا ..

ثم بعد هنيهة صمت :

— المؤسف أننى ظننت أن الذين يعرفونه فى القاهرة لا حصر لهم ولكنى لم أجد حتى الآن أحدا يعرفه .

— موضوعك غريب ، الاسم وحده ! ، وكيف تأكد من هوية من يتقدم إليك مدعيا أنه سيد سيد الرحيمى ؟..

— لدى ما أستدل به على ذلك !

وقالت إلهام وقد غلبها حب الاستطلاع :

— فى المسألة سر عجيب ، كآسرار السينما !

فقال صابر باسماء وهو يرحب فى أعماقه بتدخلها فى الحديث :

— أو أن يكشف بالسهولة التى تكشف بها أسرار السينما !

— على الأقل أنت تعلم أنه وجيه من الوجهاء فكيف عرفت ذلك ؟

سكت صابر مليا فقال إحسان الطنطاوى بلهجة جدية :

— هذا سؤال على مستوى التحقيق !

آه ، هذه الطفلة الكبيرة ، لعلها على استعداد للميل إليه ، وهى طاقة من عبير لطيف يدعو إلى استباحة الأسرار ، ليست كالنار التى صهرته بالفندق ، وقال :

— ٣٨ —

— يا آنسة إلهام أنا رجل غريب في بلدكم ..

— غريب ؟! ..

— أجل أنا في الأصل من الإسكندرية وجئت القاهرة أمس فأنا غريب في بلدكم ويهمنى جدا العثور على ذلك الرجل ، وإني أستبشر خيرا بوجهك !
ابتسمت بشجاعة الفتاة العاملة ، ومرة أخرى تذكر نشوة النبيذ بتافرنا على أنغام الكمان .

غادر الجريدة وموظفو الإدارة يتأهبون للانصراف . خطر له أن ينتظر قليلا ليلقى نظرة أخيرة على إلهام فوقف ضمن الواقفين تحت مظلة محطة للبص . إشعاعها اللطيف لم يزل ناشبا في خياله وقد تخفف من عبء البحث إلى حين بوضع ثقتة الكاملة في الإعلان . وجرى هواء مائل للبرودة في جو أبيض امتص لونه من سحاب ناصع البياض فأضفى على الدنيا حلما رائقا . ورأى إلهام وسط مجموعة من الشبان والشابات وقفوا أمام الجريدة متبادلين كلمات سريعة وابتسامات قبل الافتراق ، ثم عبرت الفتاة شارعا جانبيا للجريدة إلى محل صغير يدعى فتر كوان واختفت داخله . تبعها بلا تردد ، ثم نظر إلى الداخل من خلال حاجز زجاجي فرآها جالسة إلى مائدة منفردة ، وتبين حقيقة المحل وهو مطعم للشطائر ومشرب للعصير والقهوة . دخل كأنما يقصد البوفيه ثم لحها — مصادفة — فتهلل وجهه ومضى إلى مائدتها في أقصى المحل والنادل يضع أمامها طبقا بالشطائر وكوبا من عصير البرتقال :

— مصادفة جميلة جدا ، هل تسمحين لي بمشاطرتك المائدة ؟

قالت دون حماس ودون فتور :

— تفضل ..

وطلب غداء كغدائها ، وزاد انتعاشا بإشعاعاتها التي ترفعه إلى مستوى غير مألوف في علاقاته مع الناس . وشعر ببهجة غريبة :

— لا شك أنني أبدو ثقيلًا ولكن هكذا يبدو الغريب !

— إلى أرحب بالغرباء .

— شكرا ، أقصد أن لهفة الغريب على التعرف بالناس تنفرهم منه ؟

— ليس في مشاركة عابرة كهذه ما ينفر إطلاقا

— ٤٠ —

وشكرها ثم تناول أولى شطائره .

— لعلك ذاهبة إلى السيما ؟

— كلا ، ولكننا نستأنف العمل في الجريدة بعد ساعتين أو أكثر قليلا ، ولما كان بيتي في أقصى الجيزة والمواصلات كما تعلم فإنني أفضل كثيرا أن أتناول طعامي هنا ..

— وهل تبقي هنا طوال الوقت ؟

— بعض الوقت وأتمشي على النيل البعض الآخر .

ورحبا يتناولان طعامهما . واسترق — كلما وجد فرصة — النظر إلى فيها وهو يمزغ الطعام ، وإلى أصابع يديها ، متمليا ما أمكن زرقة العينين في البشرة السمراء .

— ماذا ترين في الإعلان ، هل يحقق المقصود منه ؟

— هو كذلك دائما .

قصد أن يوقظ حب استطلاعها ولكنها لم تناد في الكلام فقال :

— كم تهمني النتيجة .

— ألا تعرف شيئا عن الرجل الذي تبحث عنه ؟

— عندي صورة وبعض معلومات طفيفة ..

ثم بعد لحظة تفكير :

— إنني موفد للبحث عنه من قبل والدي العجوز الذي كان يعرفه في الزمن

القديم ..

وقرأ في عينها الصافيتين تسأولا فقال باسم :

— معاملات قديمة .

— مالية ؟

— لا تخلو من هذا الجانب الهام !

أن تتحقق أحلام لم تخطر بالبال هو ما يطمعك في المستحيل ، وهذه الفتاة من

معدن يخلق النشوات .

— لم أشعر من قبل بمثل هذا الشعور !

فرفعت حاجبين مقوسين متباعدين في تساؤل إنكارى فقال مفسرا :

— الغربة والأمل وصحبتك اللطيفة !

— فيما يتعلق بصحبتى أرجو ألا تكرر أقوالاً أسمعها كثيرا ولم أجد لها معنى .

— تسمعيها في الإدارة !

— مثلا .

— هل أنت سعيدة في العمل ؟

— هه !

— هل تتركينه للبيت في حينه ؟

— إلى أعتبره عملا لا محطة .

وفكرته الثابتة عن الجنس الآخر لا يمكن أن تتغير . هو في نظره سلسلة من المخلوقات الوحشية الفاتنة الباحثة عن الغرام بلا مبدأ . أمه وقريناتا وفتيات الكنار الليلي وعطفة القرشي . وحتى نشوته الصاعدة إلى فوق لم تستطع أن تزعزع هذه الفكرة الثابتة ، ومع ذلك لم يشأ أن يجردها — في خياله — من ثيابها وهي عادة مزمنة لم تفارقه . تجريدها من الثياب غير مجد لأن سحرها لا يستقر بموضع بالذات ، شائع كضوء القمر . وبه جانب مجهول تتعلق به الآمال كمستقر أبيه ، ولن يتحقق سروره بها كسروره بالأخريات أى بالبهلوانيات والألفاظ الجارحة والأفعال الشائنة والعبث الهمجي الوقح . هي شيء فريد . وفي ساعات قلائل كشفت عن طبيعة ثانية فيه وعن ذوق لم يذق به الأشياء من قبل .

— ومع ذلك فانظري إلى عنايتك بأظفرك !

لاح في وجهها الاحتجاج في صورة طابع جدى وقالت :

— عنايتك بشعرك ليست دون ذلك !

— اعتبرى ملاحظتى طريقة غير مباشرة بالإيجاب .
ثم مستدركا بنبذة اعتذار وهو ينظر إلى اللوز الوردى المغروس فى البنان :
— عندما سأعود إلى الإسكندرية سأحمل منك أجمل ذكريات القاهرة .
— لم لم تعلن فى فرع الجريدة بالإسكندرية ؟
وهم بأن يدفع ثمن الغداء لها ولكنها أثبت ذلك بإصرار فعدل عنه قائلا :
— لو أردت أن تفعل نفس الشيء لما رفضت .
فقال ضاحكة :

— ولا هذه ! .
وفى مرآة مثبتة فى الجدار الأيسر ضبطها وهى تتفحصه باهتمام فارتاح لذلك جدا .
ليكن تأثيره كتأثيره فى الأخباريات ! وتذكر الأسرار التى كشفها فى ماضيه القصير فابتسم .
النوافذ والغابات والروائح الفطرية الفاتنة . وقامت لتذهب فصافحها مودعا ولكنه لم يتبعها رغم رغبته الشديدة فى ذلك . وأدرك أنه من المحتمل جدا أن يطلع نزل الفندق وصاحبه على الإعلان ، وأن علاقته بمن يبحث عنه لن تخفى على أحد .
ولما أخبر خليل أبو النجا ومحمد الساوى عن المكالمات التليفونية المنتظرة قال العجوز :

— إذن أنت تبحث عن أبيك ؟!
فتورد وجهه وأحنى رأسه بالإيجاب .
— وكيف فقدته ؟
— فقدته كما فقدنى وها أنا قد قمت للبحث عنه .
— لا شك أنها قصة عجيبة !
وتضايق من الأسئلة المطوقة فقال :
— بل عادية جدا فأرجو استدعائى عند الطلب .
الشاب الذى يبحث عن أبيه ، هكذا سيطلقون عليه . وسيقولون ويتقولون . وهز كتفيه استهانة . ولزم الاستراحة أكثر الوقت وكلما رن

التليفون تعلق به بصره . ووقعت مكالمات غير مجدية فاتصل به سيد سيد الرحيمى الحلاق ببولاق وثنان مدرس لغة عربية وثالث سائق ترام وقابلهم واحدا فواحدا ، كما قابل الدكتور من قبل ولكن لم يكن لأحد منهم علاقة بمن يبحث عنه . أين من يبحث عنه إذن ؟ . ولم لم يتصل به كما فعل الآخرون ؟ . إذا كان قد مات أفلم يترك ابنا أو قريبا ؟ . وتذكر نقوده التى تتناقص باستمرار بمزع شديد . ومن حوله جلس كثير من النزلاء وتطاليرت رائحة القهوة والسجائر ولكن أحدا لم يلق إليه بالا وكأن الإعلان لم يقرأه أحد وهو ما حمد الله عليه . ولكن ما عسى أن يصنع إذا تتابعت الأيام بلا نتيجة ؟ . ماذا لو نفذ المال ولم يظهر الأب ؟ أنت قواد أو بلطجى ؟ . وعهد النبى دانيال الذى مضى كعبير طيب بددته الريح . عرف حب الأم وإغداقها المال بلا حساب وعرف مسرات الحياة بلا خوف أو ندم . وقالت الحياة جميلة وأنت زهرتها . وحتى عند الوعى بحقيقة الأمر خضعت لها باعتبارها مصدر كل شيء . وأنت ترقص فى ملهى الكنار الليلي صاح مخمور أكل الغيظ قلبه :

— يا بن بسيمة ! .

فكانت معركة دامية وتناثر الزجاج ، ولا شيء يحمى السمعة السيئة إلا القبضة الحديدية . وما دامت بسيمة قد دفنت فلا أمل إلا إذا جاء الأب . وقال أحد القاعدين فى الاستراحة :

— القطن ! ، كل شيء يتوقف على القطن !

لم ؟ . أهو رحيمى آخر ؟ . وهو لولا الإعلان ما تصفح جريدة . حتى أبناء الذرة وغزو الفضاء جاءت عن طريق السكرارى بملهى الكنار . وتساءل رجل آخر :

— وهذه الحروب التى تهدد العالم ألا تضمن لنا القطن ؟

— لن تكون كالحروب الماضية ..

— أجل أنها لن تبقى على شيء ..

— ٤٤ —

— القطن والفول والبهائم والخلق !

فتساءل الصوت الأول :

— وأين الله خالق كل شيء وحافظه ؟

أين الله حقا ؟. هو عرف اسم الله ولكنه لم يشغل باله قط . ولم تشده إلى الدين علاقة تذكر . ولا شهد النبي دانيال ممارسة عادة دينية واحدة فهو يعيش في عصر ما قبل الدين . وقضى عليه بأن يمضي أجمل أوقات النهار بين ثرثارين أغلبهم من الريف ، ورائحة السجائر تختلط دائما برائحة البصل الأخضر . وإذا اشتدت مرارة الصبر تسلى بتخييل إلهام أو زوجة عم خليل أبو النجا . والهواء ضروري جدا والنار لا غنى عنها . وسوف يصمت إلى الأبد دون أن ينبس لسانه بجواب يخرج من حيرته . وإذا لم يلب أبوه النداء أفليس من الخير أن تنفجر الذرة لتهلك كل شيء ؟. الخوف والجوع والماضى الملوث ؟. ومرة حانت منه التفاتة إلى التليفون فرأى زوجة عم خليل بمجلسها الذي رآها به أول مرة . إذن عادت !. ودق قلبه باعثا حرارة جنونية في كافة المراكز المتلهفة . الجسم الصارخ والنظرة المتأمرة مع الغرائز . ونسى التليفون والرحيمى وإلهام . وصعد إلى حجراته في الدور الثالث وانتظر وراء الباب ، ثم سمع وقع أقدام صاعدة فخرج إلى الطرقة فالتقيا في منتصفها . وتظاهرا بالمفاجأة وقال :

— حمدا لله على سلامتك !

فشكرته بابتسامة فقال :

— تراكت خلفك وحشة حقيقية !

فجادت بهزة شكر من شعرها الأسود وسارت في طريقها المفضى إلى سلم

الدور الرابع غير أنه همس بجراحة :

— الإسكندرية !

تباطأت حتى وقفت تقريبا على بعد ياردة منه متسائلة :

— الإسكندرية ؟

— أجل ، الإسكندرية .

قالت مقطبة :

— لا أفهم شيئا !

فقال بإصرار :

— إن كنت نسيت فأنا لا يمكن أن أنسى .

— أنت مجنون ؟.

قالتا بتبات زعزع ثقته فتساءل :

— أأست ..

ولكنها قاطعته وهى تمضى فى سبيلها :

— لعبة قديمة وسخيفة .

واستدرك قبل أن يوغل فى الابتعاد :

— على كل حال تقبلى إعجابى ..

واعتمد على الدرايزين حتى يتالك أنفاسه ، حتى تبرد بعض الشيء النار الحامية . وتملكته لحظة جنونية فتمنى لو يهلك جميع من فى الفندق ليخلو لهما وحدهما . كما عصف به الجنون ليلة المطاردة التى اندلعت من ساحل الصيادين بالأنفوشى . وإذا بعلى سريقوس يهبط السلم وهو يدندن بموال صعيدى فجره إلى موقفه بإشارة وقال بمكر :

— سمعت صوتا يناديك لعله صوت أأست !

— أأست ؟.

— حرم عم خليل ؟.

— كلا . لعلها الحجرة ١٦ ، أنا قادم من عند أأست ، وهى تدخل شقتها .

— ربما ، وستأكد بنفسك ، ولكن هل تقيم أأست فى شقة ؟

— شقة عم خليل فوق السطح .

— وأين كانت طوال الأيام الماضية ؟.

— عند أمها ، إنها تزورها كل شهر .

ورمق ظهر عم خليل ، وهو نازل — باحتقار ومقت ، وكره فكرة العودة إلى مجلسه بالاستراحة فغادر الفندق . تمتع بشمس ترسل أشعتها من سماء صافية ، في جو يتيه ببرودة لطيفة محببة ورغب في المشي بنهم فمشى بلا هدف وهو يأسف على أنه لا يجد فراغ البال لمشاهدة القاهرة . وتذكر أن مدة الإعلان ستنتهى بعد يوم فمضى إلى جريدة أبو الهول ، والحق أنه كان يرصد ميعاد الذهاب إلى الجريدة ليرى إلهام من جديد . وجد إحسان الطنطاوى مشغولا بزبون فصافح إلهام ثم جلس على الكرسي بين المكتبين . توقفت عن دق الآلة الكاتبة وسأله :
— لا جديد ؟ .

أجاب وهو يفيق نهائيا من لفحة الجحيم :

— مكالمات ومقابلات غير مجدية ..

— الصبر طيب .

تابع أصابعها فوق أحرف الآلة بارتياح خفف عنه متاعبه ، وبدا عنقها طويلا وهي خالعة جياكتها وفي صفحته اليسرى لاح خال . ورغم سعادته برؤيتها فاجأه حزن طارئ لا تفسير له . وتبين أن إحسان الطنطاوى ينجز إعلان وفاة فحاصرته ذكريات الليلة الأخيرة لأمه . ووضحت له تعاسة مركزه في الوجود إذ يعتمد كلية على شبيه بالسراب . وحانت في تلك اللحظة التفاتة سريعة من إلهام إليه فانشرح صدره وتجاهل همومه . وفرغ إحسان الطنطاوى من إعلان الوفاة فحياه قائلا بشيء من الخبث :

— تعجيد ؟

ضحك وهو يحنى رأسه في تسليم ، ثم سأله :

— جاءنى كثيرون أما هو فلا حياة لمن تنادى ، ما تفسير ذلك ؟

— الإعلان من هذا النوع يتطلب المثابرة .

— ولكن المفروض أن الرجل معروف على أوسع نطاق !



تباطأت حتى وقفت تقريبا على بعد
ياردة منه متسائلة : الإسكندرية ؟

— أنت لا تعرف سوى اسمه ، وما عدا ذلك بالسماع عرفته ولا يمكن أن تقطع في ذلك برأى حاسم ، وأنا رجل عشت في مختلف الأوساط بالقاهرة زهاء ثلاثين عاما ولم أسمع عنه ..

— ولكنى أصدق تماما من أرسلنى للبحث عنه .

— إذن ففى المسألة سر ستكشفه لك الأيام .

تفكر قليلا ثم قال :

— عندى له صورة قديمة أخذت له منذ ثلاثين عاما .

— نضيفها إذا شئت إلى الإعلان فتضاعف من فائدته .

وأراه الصورة فتفحصها ثم تتم بإعجاب :

— يا له من شخصية !

وانتظر صابر فى إشفاق أن يلاحظ الرجل وجوه الشبه بينه وبين صاحب الصورة ولكنه لم يلاحظ شيئا ، ومضى يتحدث عن الإعلان الجديد وتكاليفه . ووافق صابر على الاقتراح مرغما . ثم غادر الجريدة وهو يفكر فى نقوده التى تتناقص يوما بعد يوم ، والتى سيضحي بعد نفادها معدما كمتسول . وذهب إلى فتر كوان فجلس إلى مائدة إلهام ينتظر . ولما رآته ترددت فى شيء من الارتباك ولكنه أزال تردددها بوقوفه مرحبا ، وبمجرد أن جلست طلب الغداء من الشطائر والعصير ، وتصرف بلا كلفة ليبدد دهشة اللقاء . وإذا بها تقول :

— رأيت الصورة !

— حقا ؟

— أنت تشبهه !

— تعين الرجل ؟

هزت رأسها موافقة وهى ترمقه بارتياح فلم يجد بدا من اختلاق كذبة

جديدة فقال :

— إنه أخى ..

— ٤٩ —

- أخوك !، معقول جدا ولكن لماذا لم تقل ذلك من الأول ؟
فابتسم ولم يجب فسألته :
— ومن الفتاة الجميلة !
— كانت زوجته رحمها الله ..
— آه ، وهل .. أعنى أخاك .. كيف ..
— اختفى قبل مولدى . خلاف ثم اختفاء كما يقع أحيانا ، وأخيرا بعد ثلاثين
عاما أرسلنى أبى للبحث عنه ..
— حقا إنها قصة مثيرة ، ولكن لم تعتقد أنه شخصية معروفة ؟
— هكذا قال لى أبى ، ولعله مجرد استنتاج ، ولكن العجيب أن إحسان
الطنطاوى لم يلاحظ الشبه بيننا عندما أريته الصورة فهل حدثك عن ذلك بعد
ذهابى ؟
— كلا ، رغم وضوح الشبه ، ولكن رأس الأستاذ إحسان مشغول
بالحسابات ..
وجاءت أطباق الشطائر فبدأ الغداء . وعند ذلك قال معتذرا :
— آسف على تطفلى ، ولكنى وحيد فى المدينة والفراغ يوشك أن يقتلنى ..
فقبلت عذره بابتسامة وسألته :
— كيف تمضى وقتك ؟
— فى الانتظار .
— هذا عمل جدا ، ثم إن البحث غير الانتظار .
— ولكنه لا يخلو من فترات انتظار .
— وماذا تفعل فى أوقات الانتظار ؟
— لا شئ !
— غير معقول .
فقال برجاء :

— ٥٠ —

- من هنا تلمسين مدى حاجتى إلى صديق .
ووشى توردد وجنتيها بتشرّبها الإشارة فتشجع قائلاً :
— وأنت الصديق !
شربت قليلاً من الماء ثم واصلت الطعام فتساءل :
— ما رأيك ؟
— قد تكون مغالياً في ظنك .
— هذه الشئون تعرف بالقلب .
— يمكن أن نتقابل كلما جئت لتجديد الإعلان .
فضحك قائلاً :
— إذن فأنت تريدني أن أواصل الإعلان إلى الأبد ؟
— ما دام يهلك العثور عليه .
— هو ذلك ، ولكن إذا أثبت الإعلان عقمه فسوف أستأنف البحث .
ورفعت كوب البرتقال فرفع كوبه قائلاً :
— صحتك !
— أنت تشجعني على الحذر منك !
وشرباً وهما يتبادلان الابتسام . وقال إنه ما كان يطاردها لو كانت مكان
الأخرى عند ساحل الصيادين . وقال إنها عزيزة جداً وهو يحبها . « ومن الفتاة
الجميلة ؟ » عجب موقع السؤال من أذنك . لكونها لم ترها في الليلة الأخيرة .
ولم تر كفنها النحيل كلاً شيء .
وقال بدهاء :
— أشكرك جداً !
وجدت في الشكر فحاً ولكنها لم تبد احتجاجاً . وحل صمت سعيد
فانغرس بذور التفاهم . وطريق البحث شاق ومحرق وطويل فيحتاج إلى
استراحة من الظل الظليل .

تعب البصر من تفحص الوجوه . وشوارع القاهرة الزاخرة بتيارات البشر والسيارات كأمواج البحر في الأيام العاصفة . وسحب الخريف الواردة من الإسكندرية يتبدد أكثرها قبل الوصول إلى سماء القاهرة ولكن ذكريات الإسكندرية مشتتة أبدا في القلب المنتظر . ولم تعد استراحة الفندق مرهقة مد عادت المرأة من رحلتها ولكنها في الحق معذبة . وليس نادرا أن ترى بمجلسها إلى جانب زوجها وأنت ترصدها من أقصى الاستراحة ، ولها نظرة دسمة موحية تنفجر همساتها كالشرر . وكم من محاولات فاشلة بذلت للانفراد بها في طرقات السلم ، وقد تدرى بها من بعد فتفسدها عليك ثم تجيء إلى مجلسها ساخرة . وهي لا ترد ابتسامة وتتجاهل أى إشارة . ومن خلال حيرة ضيائية تلتصع بوارق إغراء لاسلكية . وكلما جن جنون الإثارة تمنى الهلاك لجميع من بالفندق لينقض عليها في الخلاء الصامت . في هذه الحالات الجنونية تنزوى إلهام في ركن كالندم عند طغيان الجريمة . ويفيق أحيانا على روائح السجائر والبصل وأحاديث القطن والقمح والحرب المدمرة . لعلهم مثلك يجرون وراء أمل شبيه بما يعدك به أبوك المفتقد . ومن صميم ذهوله استيقظ مرة على صوت محمد الساوى وهو يهتف :

— صابر أفندى .. تليفون ..

وثب في انتباه حاد واندفع نحو المكتب . هل أخيرا ؟..
وتأهبت جميع حواسه لسماع الكلمة الموعودة .
— آلو ؟!

— حضرتك صاحب الإعلان ؟
أجاب وهو يحس بدبيب دموع الراحة في أقصى مسالك عينيه :
— نعم من حضرتك ؟

— ٥٢ —

- أنا الرجل الذى تطلب فيما أعتقد ..
- سيد سيد الرحيمى ؟
- نعم ..
- هل الصورة صورتك ؟
- نعم ..
- ازدرد ريقه بصعوبة ثم قال بصوت متهدج :
- كيف أقابلك ؟ ، أى مكان تحدده ؟
- ولكن لماذا تريدنى ؟
- فننؤجل ذلك للمقابلة ..
- أفضل أن تعطينى فكرة قبل المقابلة ..
- لكن ذلك متعذر بالتليفون ولا ضرر من المقابلة ألأبته ..
- هل يمكن أن أعرف من أنت ؟
- اسمى منشور فى الإعلان ..
- أعننى مهنتك أو عملك ؟
- من الأعيان ..
- ولم تريدنى ؟
- ستعرف ذلك فى الوقت الذى تحدده ، وكله خير ..
- وسكت الصوت قليلا ثم قال :
- تعال الآن .. إليك العنوان : فيلا ١٥ شارع التلبانة بشبرا .
- سأل عم خليل وعم محمد عن العنوان ولكنهما لم يعرفاه وقال له الساوى :
- أسماء الشوارع تتغير فى كل ساعة ، اذهب إلى شبرا أولا ثم اسأل هناك عن الشارع ..
- وذهب إلى شبرا ، وحرقت ساعات النهار فى البحث والسؤال مندفعاً بإصرار محموم ولكنه لم يجد أحدا قد سمع عن الشارع . ولما أعياه التخيبط ذهب إلى قسم



وكلما جن جنون الإثارة تمنى الهلاك لجميع من
بالفندق لينقض عليها في الخلاء الصامت ..

شبرا وهتاك تأكد من عدم وجود شارع بهذا الاسم . تداعى إلى فراغ اليأس .
هل أخطأ السمع ؟ ، هل عبث به عابث ؟ .

ورجع إلى الفندق وصوت الشحاذ يعلو بالمديح فكره كل شيء إلى حد
المرض . ولما رأى المرأة فى مجلسها المألوف امتزجت كراهيته برغبة عنيفة
دموية . وأخبره الساوى أن شخصا سأل عنه فى التليفون أكثر من مرة ، ورجع
أنه نفس الشخص الذى طلبه أول النهار ، فعاوده الأمل وقال إنه أخطأ السمع بلا
شك وأن الرجل استبطأه فكرر السؤال عنه . وتمم عم خليل :

— وفقت إن شاء الله ؟

فأحاب متظاهرا بالمرح :

— فى الطريق ..

وخطف من المرأة نظرة ثم مضى إلى مجلسه بالاستراحة منهوك القوى ،
وتسللت إلى المكان كآبة مساء الخريف فأضيت الأنوار . واختفت المرأة
فاردادت الكآبة كثافة . لا شك أن الرجل سيعيد المكاملة . وإذا بالساوى يلوح
له بالسماعة فهرع إليه :

— آلو ..

— صابر ؟ .. فات النهار ولم تأت ؟

— لكنى لم أجد الشارع ..

— هل بحثت عنه حقا ؟

— طول النهار تقريبا .. التلبانة رقم ١٥ بشبرا ..

— حقيقة إنك حمار ..

وضحك ضحكة طويلة قبل أن يغلق السكة . أعاد السماعة وغادر
الفندق . انتفض طوال الوقت من الغضب . عابث كلب وغد . هكذا يرد إلى
نقطة البدء ودون بادرة أمل . وذهب إلى بقالة الحرية بكلوت بك فاشترى
زجاجة كونيأك وأعد له الرجل عشاء سملك . يوم عابث ويأس فلا أقل من أن يختم

بسهرة مستهترّة . وشرب بسرعة ودون أدنى اهتمام بالنقود التى تنفق . كأيام
النبى دانيال . عندما قالت له الدنيا جميلة وأنت زهرتها . وهواء الإسكندرية
المعربد الملىء بالفتن . أما هذه المدينة فلا يلقى فيها إلا العناء . وكل ساعة تمر تقربه
من النهاية المخيفة . وماذا بعد الانتظار والجري وراء المجهول فى الظلام ؟ . وإذا
خطر له أن يمتحن مهنة أمه فسيكون هزءة رجال الليل بالإسكندرية . واللكمة
التي كانت تؤدبهم نقلب راحة مبسوطة لخدمتهم . الجريمة دون ذلك يا أوغاد .
لعل عايب التليفون واحد منكم فالويل لكم . وامرأة الفندق متعة يرغب فيها منذ
عهد الأنفوشى وإلهام عبير طيب ولكن ما قيسه أى شيء قبل العثور على الأب ؟ .
وتبسم بالنشوة رغم رائحة السمك . ومضى يسير تحت البواكى المقطبة . وحن
إلى الرقص فى الكنار الليلي ، والشوارع السنجابية المغسولة بماء المطر . والهواء
المنبعث من الهدير الذى يغطى الأجساد بغلالة سماء . ومس دمه حنون حيوانى
كليلة المطاردة . وأمّه كانت تدخن النارجيلة وتحكم الرجال . وعندما تجلس
لمناقشته تجلس كملكة . وقالت له افعل ما تشاء ولكن لا تسرف فلا عدو لنا إلا
الفقر . وقالت له اعشق كل يوم امرأة ولكن لا تجعل لإحداهن من سلطان
عليك . وهام على وجهه فى الليل كالثور . وفى ملهى الكنار تعبث الأيدي تحت
الموائد عبثا فاضحا . ولكن أين سيد سيد الرحيمى ؟ . وهتف بصوته الملىء « يا
رحيمى » ثم راح يندندن بالأغنية الإسكندرية « ما تبطل الشقاوة وتعال
عندنا » . وبحكم الكونياك والسمك والههم جرد الزوجة من ثيابها وعث بها
بوحشية . ورجع إلى الفندق عند منتصف الليل فوجده غارقا فى النوم . ودخن
سيجارة فى حجرته الأثرية ثم نام . واستيقظ . انتبه إلى أنه استيقظ على صوت
وفتح عينيه . ثمة ظلمة عميقة والنافذة لم تفضح بأى نور . ثم يسمع نغرا خفيفا
متقطعاً على الباب . جلس وهو يرهف السمع فعاوده النقر الخفيف الحذر . مد
يده إلى مفتاح الكهرباء فأضاء المصباح العارى ثم مضى إلى الباب وفتحه بخفة .
وما إن تحركت الضلفة عن فرجة حتى مرق منها شخص ثم رد الباب وراءه

— ٥٦ —

بسرعة . اشتعل يقظة وهو يحملق فيها ثم غغم بذهول نشوان :

— أنت ؟!

نظرت حولها بحركة تمثيلية مازحة كأنما فوجئت بخطأ لم يجبر على البال

وتمتت :

— أين أنا ؟ .. أخطأت المكان ؟ ..

وحبكت الروب حول صدرها نصف العارى وعضت على شفيتها لتشد ابتسامة فجذبها إلى صدره ، إلى ييجامته المبعثرة وشعره المنكوش ، وضمها إليه

بقوة الصبر المعذب الطويل :

— أما أنا فأنى أنتظر مائة عام ! .

واتجهها ملتصقين نحو السرير ، وفي الطريق أطفأ النور .

— ألم تصادفك متاعب ؟

— كلا ..

هى أدرى بأمرها وهولا يهيمه شيء . ورفع شفتيه عن ثغرها لحظة ليسأها :

— لم أعرف اسمك ؟

— كريمة ..

فهمس فى أذنها من خلال أنفاس حارة :

— جدا ! .

إذن فأنت من النوع المقتحم ! .. لم أفطن إلى طبعك بسبب دهائك الجميل .

وفى الوقت المناسب لا يردك شيء عما تريدن . ما أحلى الحب فى الظلام .

وتحقق حلم الجنون فى دوامة من الدهول . وانصهر التأمل فى وقدة طاغية ،

وسبحت موجة من النار فى الظلمة الدامسة . واستحكمت لحظات النسيان

المطلق فالتهمت الماضى والحاضر والمستقبل .

— قلت إنك أكثر من كريمة !

— وأنت ؟!

وتسللت إلى أنفه رائحة خفيفة ولكنها مثيرة جملة الذكريات . وتوقع أن يسمع هدير البحر . حتى تواصل تردد الأنفاس كصدى رنين الأوتار بعد توقف العزف . ورأى الظلمة مرة أخرى . سواء فتح عينيه استطلاعاً أم أغمضهما شبعاً وارتياحاً . وقال بصوت منغوم :

— في الدنيا أشياء تستحق عليها التهنئة حقاً .

— سيجارة من فضلك .

أشعل لها سيجارة وهو يقول :

— ظننتك غير مدخنة ..

— نادراً جداً ما أدخن !

وترك العود يعكس على جسدها ضوءه ، ولكنها نفخته فساد الظلام وانتشرت رائحة فسفورية خفيفة .

— لم ألس فيك طوال الأيام الماضية إلا المعاندة !

— ولا المعاندة !، أنا لا أبدى شيئاً !

— أما أنا فصارحتك بكل شيء من أول يوم !

فضحكت قائلة :

— عندما رأيتك قادمًا منذ عشرة أيام قلت لنفسى هذا هو ..

فهتف بانتصار :

— الإسكندرية !؟

— كلا ، لا أقصد هذا ولكننى قلت هذا هو رجلى !

— والإسكندرية ؟

— أنت تخنلق حكايات لا أصل لها .

— حقاً ؟

— ولم أكذب عليك ؟

— عجيب أن يخلق مثلك مرتين !

— ٥٨ —

- يجب ألا يسرقنا الوقت حتى لا تحدث حوادث !
— كيف أمكنك الجيء ؟
— أخذ المنوم فنام ، متاعبه كلها تتجمع عند النوم .
— ولكنك خبيت ظني ، طالما قلت لنفسى إذا كانت هى فتاة الإسكندرية .
فقد يعنى هذا أئنى سأوفق فى البحث ..
— تعنى أباك ؟
— نعم ..
— ما حكايتك بالضبط ؟
— نشأت وأنا أظن أبى ميتا ثم أخبرنى ثقة بأنه حى ، هذه هى الحكاية باختصار .
— لعلك تبحث عن المال ؟
— ولكنه ليس كل شيء ، الذى يهمنى الآن أكثر من سواه أن أسمع منك أنك ستجيئين كل ليلة ؟
— كلما وجدت فرصة .
— فقبلها قبلة طويلة هادئة فقالت بشقاوة :
— كلما راق لى ذلك !
— فتشمم عبير صدرها بامتنان وقال بتوسل :
— لا تنكرى الإسكندرية !
— أنت مجنون بخيال ، واحذر أن تكون كذلك فى حكاية أليك ؟
فقال بوجوم :
— أود لو كان ذلك كذلك لأريح نفسى ..
— همك أكبر مما ظننت !
— نعم ، ولكن همى الجديد ، بعد هذه الليلة ، أن أبقى هنا أكبر مدة ممكنة .

— وماذا يمنعك من ذلك ؟

بعد تفكير :

— إذا نفذت نقودى قبل العثور على أبى وجب على الرجوع إلى الإسكندرية .

— ومتى تعود إلينا فى تلك الحال ؟

— على أن أبحث عن عمل هناك .

فشبكت أصابع يدها فى أصابع يده وقالت :
— لا ..

ارتفع انتباهه إلى القمة فعادت تسأله :

— ولم لا تبحث عنه هنا ؟

— غير ممكن !

— كللك ألغاز ، ولكنى أخبرك بأن النقود ليست مشكلة .

خفق قلبه وقال مقتبسا من جو الكنار الليل :

— الظاهر أنك مليونيرة .

فقال فى مباهاة :

— هذا الفندق .. والمال .. كل شئ باسمى أنا !

— والرجل موظف عندك ؟

— كلا هو المتصرف فى ماله طالما أنه على قيد الحياة .

— على أى حال هذا لا يعنى شيئا بالنسبة لى !

وخجل من مكره الساذج رغم الظلام فقالت :

— لندع الله أن يهديك إلى أهلك فهو حل أيسر من غيره .

— هذا ضرورى ولو أننى لن أهتم منذ الساعة بشئ سوى انتظارك .

وأحاطها بذراعه ولكنها تزحزحت إلى حافة السرير قائلة :

— اقترب الفجر ووجب الذهاب ..

ورجع إلى سريره بعد أن أغلق الباب وعناقها لاصق به كالعير ، واستلقى في ارتياح عميق فسرعان ما زحف عليه التخدير . وقال إنه يشعر لأول مرة بأنه يحتمل أن يستغنى عن أبيه ، ولكن عندما لوح له الساوى بسماعة التليفون هرع إليه كالريخ ثم هتف بجزع :

— ألو ؟

وإذا بصوت جاد يسأل :

— صابر سيد صاحب الإعلان ؟

— نعم أنا هو !

— أنا سيد سيد الرحيمى فماذا تريد ؟

— لا بد من مقابلتك ..

— أنا منتظرك بمحل فتركوان ، هل تعرفه ؟

— نعم سأكون عندك فى خلال دقائق .

وأجال عينيه فى المحل حتى رأى رجلا جالسا إلى مائدة إلهام لم يشك لحظة فى أنه صاحب الصورة ، بل إنه لم يكذب يتغير فى مدى الثلاثين عاما ، عدا انتشار المشيب فى سوائفه وانطباع تجاعيد غير ملحوظة إلا عند التدقيق حول فيه وتحت عينيه . نظر صوبه فى رهبة حقيقية إذ وجده أضخم وأفخم من أى خيال ، واتجه نحوه حتى حدس الرجل شخصيته فنهض لاستقباله فتصافحا وصابر لا يحول عنه عينيه .

— صابر أفندى ؟

— نعم ، وسيادتلك صاحب الصورة بلا ريب .

وجلسا والرجل يقول :

— أنت شاب فى عز الشباب ، ويخيل إلى أننى رأيتك قبل الآن ، أين يا

ترى ؟

— أنا فى الأصل من الإسكندرية ، أنزل الآن فى فندق القاهرة بشارع



وأحاطها بذراعه ولكنها ترحلت إلى حافة
السريـر قائلة : اقـترب الفجر ووجب الذهاب

الفسقية ، وأمشي كثيرا في كلوت بك وميدان المحطة ، وقد جلست أكثر من مرة إلى هذه المائدة !

— لا شك أني رأيتك في أحد هذه الأماكن ، فأنا أزور الإسكندرية من آن لآن وأمر كل يوم بميدان المحطة ، وليس نادرا أن أجلس في هذا المحل !
فهمت صابر :

— هذا أعجب ما سمعت ، ولو أنني لا أذكر أني رأيتك من قبل إلا بالتخيل ، ولكن متى اطلعت على الإعلان ؟
— منذ أول يوم !

— حقا ! ولكنك لم تتصل بي إلا اليوم !
— بلى ، ذلك أن الإعلان يدل على أنك لم تستطع الاهتداء إلى الطريق العادى على حين أننى رجل معروف جدا ولا أيسر من الاهتداء إلى بيتى أو مكان عملى ، لذلك تجاهلت نداءك . ولما لمست إلحاحك لم أربدا من الاتصال بك .
— هذا عجيب حقا فإني لم أصادف أحدا يعرفك ، ولا رقم لك في الدليل .
— لندع الآن ذلك وخبرنى عما تريد ؟

— الحق أنى أريدك أنت ، ولكن ألا تلاحظ شيئا يا سيدى ؟
ونظر فى وجهه متوقعا أن يلاحظ الشبه بينه وبين الصورة ولكنه خيب ظنه ، فقال بجزع :

— انظر إلى وجهى !
— ماذا فى وجهك ؟
وهنا سمع صوتا يهمس :
— أستاذ صابر !

التفت نحو الصوت فرأى إلهام واقفة . نهض فصافحها ثم هم بتقديعها إلى أبيه ، وإذا بالرجل يمد لها يده قائلا :
— إلهام !، كيف حالك ؟

— ٦٣ —

وقبلت الفتاة يده باحترام فهتف صابر :

— إذن أنت تعرفينه !

فسأله الرجل دون اكتراث بدهشته :

— خبرنى متى عرفت ابتتى .

فصاح صابر .

— ابتتك !، رباه !

وبسرعة غير متوقعة غادرت إلهام المكان قبل أن يستطيع منعها ، وقال

الرحيمى بهدوئه الذى لزمه طيلة الوقت :

— كثيرا ما أسمع كلاما لا معنى له ، ومنه ما يمسنى شخصا ولكنى لا

أكثر لذلك ألبتة ، خبرنى الآن عما تريد ؟

جلس صابر فى حال من الانحلال التام ، وبحركة آلية قدم له الصورة الجامعة

بينه وبين أمه التى رأى نصفها فى الإعلان ، ووثيقة زواجه بأمه ، وشهادة تحقيق

الشخصية ، نظر الرجل فيها واحدة بعد أخرى وهو هادئ كتمثال . وبكل

برود وضع كلا منها فوق الأخرى ، وبحركة سريعة حاسمة راح يمزقها إربا .

صرخ صابر وانقض عليه يريد أن يمنعه ولكن بعد فوات الأوان . أمسك بثنية

الجاكطة وصاح به :

— أنت تمحو وجودى محو فالويل لك .

فقال الرجل دون أن يخرج عن هدوئه المثير :

— ابعد عنى ، لا تترنى وجهك ، دجال كأملك ، ولا شأن لى بك ، اذهب ..

ودفعه عنه فتقهقر حتى اصطدم رأسه بحافة البوفيه .

واستيقظ ، فتح عينيه وهو يتنفس بصعوبة فرأى الحجره الأثرية على ضوء

النهار الذى ينضح به الشيش ، وأدرك أنه عار تماما تحت الغطاء فتذكر الليلة

المنطوية بجميع ملابسها ، وتهد بارتياح ، ولكنه شعر — لشدة انفعاله

بالحلم — بإعياء وحزن .

وتعددت أحلامه لدرجة أثارت انزعاجه وامتناعه ، ويستيقظ فيلزمه شعور بالتعب والكدر وأحياناً يخيل إليه أن الصمت يخنق العالم ، وكثيراً ما يذكره ذلك الصمت بالصمت المصاحب لارتفاع الموجة وتجمعها قبل أن تنفجر مرعدة مزبدة ، وفي الحلم يطل عليه وجه أبيه بالرغم من أن العشق أصبح المحور الذى تدور حوله حياته ، العشق الذائب فى أحضان الظلمة . وهو يكره الأحلام لأنها ترجعه إلى فترة ماضية من حياته ألح فيها عليه الصرع حتى أوشك أن يهلكه . وطارده ذكريات المرض طويلاً بعد شفائه منه فكان الصرع من أسباب اندفاعه فى طريق اليأس والقوة كسمعة أمه سواء بسواء . أما الصراع الذى يخوضه فى الأحلام فيورثه عقب اليقظة إنهاكا وحزناً فيمتلئ بأفكار الفناء ، وإذا ترمى إليه الأذان من الجامع القريب وهو على تلك الحال تضاعف حزنه .

وعندما دخل إدارة الإعلان بجريدة أبو الهول تطلع إليه نفر من الموظفين فى فضول ولكن تطلع إلهام إليه أفعمه بنشوة أحلى من بسملة الفجر الأولى فوق البحر الأبيض . وصافحها بحرارة كما ينبغى لصديق فسألته :

— أما من جديد ؟

فأجاب وهو يملأ من وجهها عينيه :

— جئت لأجدد الإعلان ولو أننى ترددت طويلاً هذه المرة !

— هل تفكر فى وسائل أخرى .

ابتسم ولكنه لم يخبرها بأن اهتمامه بالعثور على الرحيمى لم يعد فى مكانته

الأولى . وقال له الأستاذ إحسان الطنطاوى :

— عندنا لك مفاجأة .

فجلس وهو يتساءل فقال الرجل :

- سألت عليك امرأة بالتليفون ..
- امرأة !؟
- سألت عن سر الإعلان .
- حقا !، ومن هي ؟
- لم تكشف لنا عن هويتها ولم تشف لها غليلا بطبيعة الحال .
- أليس من المحتمل أن تكون من طرف الرحيمي ؟
- فقالت إلهام :
- قد وقد ؟
- وما قد الأخرى ؟
- فقال الطنطاوى ضاحكا :
- قد تكون من طرفك أنت !
- استعذب هذا التحقيق الذى أخذ بمجامع قلبه وقال :
- أو عابثة من العابثين ، لقد لعب معى أحدهم لعبة سخيفة .
- ترى هل المرأة من طرف الرحيمي ؟. زوجته أو أرملته ؟. أو لعلها كريمة
- دفعتم إلى ذلك بحب الاستطلاع ، إنها امرأة مجربة لا تصدق شيئا بسهولة . هي
- داهية بقدر ما هي فتاة بقدر ما هي لذة طاغية . وجلس إلى المائدة بفتركوان
- فتذكر لحظات الحلم العجيب .. وجاءت إلهام فاتخذت مجلسها ، وطلب الغداء ،
- وتبادلا ابتساما ودودا ، وقالت :
- لست على حماسك الأول للإعلان وهذا أحسن .
- أنت لا تدري شيئا عما خفض درجة حماسى !.
- أحسن ؟
- نعلم فهذا البحث يجب أن يترك للزمن الطويل .
- ولكن ألا تسمحين بأن أدفع ثمن الغداء ولو مرة ؟
- أنت الضيف لا أنا ؟

— ما أطفك يا آنسة إلهام ، ألا يمكن أن أذكر الاسم مجردا ؟

— بكل سرور .

— ما أطفك !

ومضيا يتناولان الطعام في ارتياح وسرور . وقرأ في عينها الزرقاوين اهتماما بموضوع ما لن يلبث أن يترجم إلى كلمات فانتظر الكلام بشغف مؤملا أن يكشف فيه عن حقيقة مشاعرها . وتذكر ظلمة النصف الثاني من الليل وذوبانه في فتنة رائعة فعجب لانقسامه الحاد بين المرأتين . وقالت :

— يحيل إلى أنك في إجازة خاصة لإنجاز هذه المهمة ؟

تجس النبض للتعرف عليه ، وساوره قلق ولكنه قال :

— لست موظفا بأى معنى لهذه الكلمة ، أنا من الأعيان !

— تزرع أرضك ؟

— أبى من ذوى الأملاك .

واضح أنها تتستر على شعور بعدم الارتياح . قال :

— وأنا أدير أملاكه العقارية ، وهو عمل أثقل من أى وظيفة !

ثانى كذبة يكذبها عليها وهو كاره رغم أنه لم يكذب بعد على المرأة الأخرى .

— المهم أنك لا تعيش في فراغ فهو عدو البشر .

— هو كذلك ، عانيته أسبوعين ، ولكن كيف عرفت ذلك ؟

— ليس عسيرا على أن أتصوره ثم إني قرأت عنه .

— التجربة لا تكون حقيقية إلا حين أمارسها .

— رأى وجيه .

— في سنك هذه لا يتاح لك معرفة الحقائق بطريقتى إلا فيما ندر ؟

— إن كنت تتصورنى طفلة فأقلع عن تصورك !

يا ربي كم أحبها وكم يسعدنى الوجود بقربها . وتقدم خطوة جديدة فقال :

— أنت تعرفين كل شئ عني تقريبا فهل تعرفيننى بك ؟

— ٦٧ —

— وماذا أعرف عنك ؟

— اسمى ، عملى ، أنى ، مهمتى فى القاهرة ، إعجابى بك !

وهى تضحك ضحكة صامته :

— لا تخطط الحقائق بالخيال !

وقال لنفسه بل هو الحقيقة الوحيدة التى عرفها . وتجهم الجو فى المحل كأن نوافذه أغلقت . وغاب إشراق الظهيرة السابح وراء الحاجز الزجاجى فى الخارج فتخيلا جسامة السحابة التى أخفت الشمس .

وقال مستدرجا إياها إلى الاعتراف :

— وبدورى فأنا أعرف اسمك ووظيفتك .

— وماذا تريد أن تعرف أكثر ؟

— ما تجودين به ، متى توظفت ؟

— منذ ثلاثة أعوام ، وهو تاريخ تخرجى فى التجارة الثانوية ، ولكنى مستمرة فى التعلم .

وقلق . لا تسأل عن مؤهلاتى فالكذب عنها لا يجدى ، ولكنك لبقة مهذبة .

— وأسرتك بالجزيرة ، هه ؟

— أعيش مع أمى فقط ، أسرتنا من قلوب ، وخالى بمصر الجديدة ، المهم أن فى أسرتنا مفقودا مهما كما فى أسرتك .

فقال بدهشة :

— من هو ؟

أجابت وهى تكتم ضحكة :

— أنى !

اتسعت عيناه الجميلتان فى ذهول . وتذكر الحلم العجيب . وقصه عليها محورا فيه بما يمشى مع كذبه الأولى . الآباء المفقودون أكثر مما تتصور . ولعلهما يبحثان عن أب واحد .

— لكن كيف فقد أبوك ؟
— لا كأخيك ألا ترى أنني أبيع أسرار أسرق بغير حساب ؟
فرمقها بعتاب ما لبث أن اختفى وراء نظرة متألقة بحب الاستطلاع في ذروته ، فقالت :

— الحقيقة أن أبى انفصل عن أمى وأنا فى المهد .

— هرب ؟

ضحكت ضحكة عالية فتنبه إلى هفونه فاثلا :

— أعنى اختفى ؟

— إنه محام معروف فى أسبوط ولعلك سمعت عنه فهو الأستاذ عمرو زايد .
زال عنه توتر التوقع فقال فى دعاية :

— ظننته سيد سيد الرحيمى !

فتساءلت ضاحكة :

— أيسعدك أن تكون عمى ؟

فأجاب بقوة :

— كلا .

تورد وجهها الأسمر وهى تقول :

— صممت أمى من بادئ الأمر على الاحتفاظ بى إلى النهاية ، وجارها أبى إذ كان شارعا فى الزواج من أخرى ، فاتفقا على نفقة ، ثم عادت بى إلى بيت جدى بالقاهرة ، وبعد وفاته عشنا وحيدين .

تابع القصة بقلب لم يغل من سوء ظن . كحاله مع جميع النساء والأمهات خاصة . بيد أن إلهام لم تسمع قطعا عن القوادين والبلطجية والبرجية . هل تستطيع أن تحكى قصتك فى مثل هذا التفصيل ؟ . وغيمت روجه كالسماء .
— ويوما قال خالى إن على أن أعرف أبى فقالت أمى أنه لا يستحق ذلك وأنه لم يسع إلى رؤيتها مرة واحدة ، وكنت أشعر طوال الوقت أننى بلا أب ، وقال

خالى إننى أكبر يوما بعد يوم وأنه لا غنى لى عن أبى بحال .

فغمغم وهو لا يدرى تقريبا :

— والحرية والكرامة والسلام !

فهزت منكبيها فى استهانة وقالت :

— أصرت أمى على الرفض خشية أن يفكر فى استردادى ، وانضمت إليها

بلا تحفظ ، واتفق رأينا على أن العمل أهم من الأب وأبقى .

آه كيف تتكلم الجميلة ؟. أى عمل يغنى عن الحرية والكرامة والسلام ؟

— واجتهدت حتى أكملت تعليمى ، وحصلت على الوظيفة فى امتحان

أعلنت عنه الجريدة ، وانتسبت بعد ذلك إلى معهد تجارى عال .

— وأبوك ألا تفكرين فيه ؟

— كأنه غير موجود ، وهو الذى اختار ذلك !

— لأنك فى غير حاجة إليه ؟

— كلا ، فأنا فى غير حاجة إلى أمى كذلك ولكنى أحبها ولا أتصور الدنيا من

غيرها .

ليست على شفا هاوية مثلك . وليست جائعة إلى الحرية والكرامة

والسلام . ولا يهددها ماض ملوث قد ينقلب فى أى لحظة فيصير لها المستقبل

الوحيد .

— إنى سعيدة بعملى رغم أننى لست مثلك من الأغنياء !

طعنته وهى لا تدرى . لكن الهيام غلب على جميع مشاعره . ولولا خوفه

لاعترف لها بحقيقة حاله . ولما ذهبت شعر بقلق فى وحدته . إن سمو عواطفه

نحوها يغريه بأن يجرب معها حيوانيته . وهو إغراء يقترحه عقله لإحساسه .

وهو إذ يتخيل ذلك فإنما يتخيلها مذعورة من المباغته ثم يتخيل نفسه مخذولا

منهزما . وليس عقله وحده الذى يغريه بذلك ولكن تقاليده فى معاملة النساء

ورغبته الثابتة فى العبث بما يسمى بالأخلاق الفاضلة . وكما يغطى تلوثه بالقوة

— ٧٠ —

فهو يغطيه أيضا بالاعتداء على الفضائل ليجعل من ماضيه قاعدة لا استثناء معييا .
ولذلك فإن إلهام وإن قامت في حياته كالنار إلا أنها أفلقت مخاوفه وعقده
وزعزعت أركان العالم الذى بناه لنفسه واطمأن إليه ، وفي الحقيقة هو لا ينسى
عذابه إلا في نار كريمة التى تشتعل في ظلام النصف الثانى من الليل .
ومشى في الشوارع مستسلما لجو نوفمبر اللطيف المنشط ، حتى بلغ فندق
القاهرة حوالى العصر . ورأى عم خليل مهوم الرأس تحت طربوشه الطويل .
وعم محمد الساوى مقتعدا كرسيه من خلاف عاقدا ذراعيه فوق مسنده . جلس
في الاستراحة ساعة ثم قام إلى التليفون فطلب إلهام وقال لها :
— سأقابلك غدا في فتركون فهل تأذنين ؟
— بكل سرور ، ولكن خيرا إن شاء الله ؟
— كله خير ، ولكنى سأقابلك كلما أمكننى ذلك !

العزاء الحقيقي تجود به ظلمة النصف الثاني من الليل ، عندما تعزف الأنفاس المترددة ألحانا من الغايات . عندما يسود النسيان المطلق الأرض والأفلاك . غذاء دسم وراحة أبدية لا كالقلق النشوان وعذاب الوحدة التي تخلفها وراءها إلهام . ولم تنقطع عنه ليلة واحدة . مذ أيقظه طرقها الحذر من نومه السكران . ومضت سيطرتها تزحف عليه كالزمن لا مهرب منه . وهو بفضل تجاربه السابقة يمثل دور المسيطر المتحفظ ولكن لم تخونه الملاحظات ؟ وبهذه القوة لم تتمكن منه امرأة من قبل ، ولم تشده بمثل هذه الأغلال . وهو لم يجد عندها استجابة واحدة فلم يدر إلا الظن ما حقيقتها . فليلة ذابت في أحضانه وهمست في أذنه :

— لا حياة لي بدونك !

كذكريات الكنار الليلي على أنغام البحر وتلك الليالي الظافرة في كل شيء . وربت على خدها بحنان وسيادة وهو يسبح بعزم ضد موجة تشده نحو أعماق الخضوع . هي كل شيء . الحب . والآمال التي بعثته وراء الأب الضائع . وفي ليلة أخرى أنس منها تحفظا شاردا . واستسلاما خامدا ، لا تعليق ولا حماس ولا نفور . عند ذلك شهد متفكرا حتى مطلع الفجر . ومن شدة ضيقه ناجى إلهام داعيا الروح المنبثق منها كعبير فاتن لا اسم له ، ويقول لنفسه إذا أردت أن تتخذ مني أسيرا فعلى الدنيا السلام . أنت الجحيم إذا سيطرت . وعن مآسى السيطرة تستطيع أن تحكى عشرات القصص . ولكن الحياة من غيرها لا طعم لها ، غثيان ، وفطور كالرماد ، ودون ذلك الجنون والدم . وكما كانت بسيطة عند ساحل الصيادين وإن لم تخل من مشاكسة . كموهبة كامنة لم تنضج بعد . ها أنت تسلكها في ذكريات الأنفوشي بعناد لا مبرر له ، وتلك حقيقة ضاعت كموجة في بحر . وهي ليست الحب وجده ولكنها نسيان سحري لعذاب البحث العقيم

عن الأب ويأسه ، وهرب من دوامة القلق التي تخلفها إلهام ، وهى فى ذات الوقت لا تخلو من مزية أو أكثر اختصت بها إلهام أو الأب . وقال لها وهو يتعذب من تغييرها :

— لست كعادتك .

فسألته بسذاجة :

— هل تجدى أحيانا مختلفة ؟

أماكرة هى أم ذاهلة !. أنسيت لحن الاعتراف المعربد المجنون ؟ .
وأملك تكشف لك مرة عن وجهين . حين طمع صديق فى زيارتها بمسكن
النبي دانيال . طرده من شراعة الباب بقسوة وحشية ثم خلت إلى نفسها وهى
تسب وتلعن . ثم أغمضت عينها إعياء وتهاوت بلا حول وأجهشت فى البكاء .
وقال بلا اكتراث فى الظاهر :

— حسبتك متوعكة .

فقال ببساطة ولكن خيل إليها أنها تتحداه :

— إلى على خير حال .

— يسرنى أن أسمع ذلك .

فداعبت خده براحتها قائلة فى هدوء :

— ألا ترى أنك أعز عندي من الحياة نفسها ؟

أنت لا تتعامل بالألفاظ ، وجميع ما يحيط بك يندرك بالمتاعب ولن يكون هذا
بلا ثمن . قال بمكر :

— وأنت عندي كذلك وأكثر ، ولذلك فكلما اقترب الرحيل حزنت بلا
حدود !

— أنت تتكلم عن الرحيل ؟

— السكوت لن يبعده .

— سنبعده بقدر ما نستطيع ولكن حيلتنا محدودة فغريزة النقود هى الغريزة

— ٧٣ —

- الوحيدة التى حافظت على قوتها عند الرجل !
- فضلا عن ذلك فليس هو بالحل .
 - هو جرعة إسعاف عند الضرورة .
 - والرجل يقظ فى هذا الجانب ؟
 - جدا . ولا تهمه النقود بقدر ما يهمه كيف أنفقها .
 - غيور ؟
 - فوق ما تتصور ، وبيننا اتفاق يجب أن أحترمه وإلا ضاع كل شيء ،
 - ولكن ماذا تفعل أنت ؟، ألا عمل لك إلا انتظار مكالمة تليفونية ؟
 - لو جاءت لاختفت متاعب الحياة .
 - كان أبى على هامش الحياة .
 - وليس كذلك أبى .
 - كيف فقدته ؟
 - تاريخ قديم سأحدثك عنه فى ظرف آخر .
 - ولم لا يريد أن يتصل بك ؟
 - آه هذا هو العذاب الغامض الملىء باحتمالات لا حصر لها . وعادت تسأله :
 - خبرنى عن حالك إذا لم يظهر الرجل ؟
 - تصورى حال رجل بلا مال ولا أهل ولا عمل !
 - وكيف عشت فيما مضى ؟
 - ملكت الألوف ولكن لم يبق إلا عشرات .
 - ماذا كنت تعمل ؟
 - لا شيء ..
 - لم لا تبحث عن عمل ؟
 - لا قيمة لأى عمل يجىء عن غير طريق أبى .
 - لا أفهم .

— ٧٤ —

- ولكن صدقيني .
- أشتغل بتجارة .
- لا رأسمال ولا خبرة .
- وظيفة ؟
- لا مؤهل ولا وساطة .
- ثم بعد هنية صمت :
- الواقع أننى لا أصلح لشيء .
- فتخللت غابة صدره بأصابعها وهى تهمس :
- إلا الحب ..
- فابتسم فى الظلام ثم سأل :
- ترى كيف تمضى بنا الحياة ؟
- الأمور معقدة وزوجى غير مأمون الجانب .
- كم أنه طاعن فى السن !
- هو كذلك ، وأضيف أنه من صلب معمرين عاشوا حتى قيل إن الموت نسيهم !
- وعمره على أى حال أطول، من عمر البقية الباقية من نقودى .
- وقد يشم رائحة غريبة فى الهواء فلا نلتقى بعد ذلك !
- فشد على راحتها فوق صدره وقال :
- عند اليأس نهرب .
- مستعدة لذلك ولكن ماذا نصنع بعد الهرب ؟
- فقال بحدة :
- حتى حبنا لا قيمة له بدون أبى !
- فكر ولا تحلم .
- أيعنى هذا أنه يجب أن ننتظر ؟



فداعبت خله براحتها فائلة في هدوء : ألا ترى
أنك أعز عندي من الحياة نفسها ؟..

— ٧٦ —

- وكم تتحمل الانتظار ؟ .. وماذا بعد الانتظار ؟
— الموت !
— ربما سبقناه إليه ، يخيل إلى أحيانا أنه سيدفنى ، لا مرض به ألبتة وى أنا
مرض الكبد واللوزتين .
— شىء مضحك !
— هو فى الواقع مبك ، وعند أول بادرة شك سأمتنع عن الزيارة .
— عند ذاك أجن .
— وأجن أنا أيضا ولكن ما الفائدة ؟
— الانتظار غير مجد ، والهرب عقيم ، والتليفون حلم ، ما العمل ؟
— أجل ما العمل ؟
— أظن الهرب أنسب الحلول .
— أبدا .
— إذن فهو الانتظار .
— ولا الانتظار .
— إذن ما العمل ؟
— آه ، مادنا عاجزين فلنقطع ما بيننا .
— سد فاهها براحتة لحظة وهو يقول :
— أهون من ذلك الموت .
— فتنهدت قائلة :
— الموت .
— ثم وهى تناجى نفسها :
— أجل ، الموت .
— هزت نبرتها أعماقه فأرهف حواسه وقلبه يخفق . وطال صمت لدرجة أرهقته
فقال :

— ٧٧ —

- ماذا أسكتك ؟
— تعبتي ، لا تسألني عن شيء .
— ولكن مشكلتنا ما زالت عند نقطة البدء .
— دعها حيث هي .
— ولكن يوجد بلا شك حل .
— ما هو ؟
— إني أسأل .
— وأنا أسأل .
— لكنني توقعت في لحظة أن تقول شيئا هاما ..
— لا رأى عندي ، ولكنه حلم ، كالتليفون ، أن أرث سريعا الفندق والمال
المودع باسمي ، وأن نعيش معا إلى الأبد .
— آه ..
— عيينا أننا عند العجز نحلم .
— ولكن الحلم قد يتحقق فجأة .
— كيف ؟
— يتحقق وحده !
— صوتك ضعيف يقطع بأنك لا تصدق .
— نعم ، وإذن ؟
— وإذن سيطلع الفجر ونحن لا ندرى ، وقد قلنا ما يمكن أن يقال .
ارتدت ثيابها في الظلام وهو يتطلع إلى شبحها المتحرك وتبادلا قبلة وراء
الباب ثم ذهبت .
اندس تحت الغطاء فغشيته كآبة مقبضة . الظلام لون الموت . وظلمة القبر
تشهد الآن صورة لأملك لم يشهدها أحد . وعندما نطق القاضي بالحكم وددت
أن تخنقه . وفي السجن قالت لك أملك « أنا عارفة الوغد الذي وشى بي ،

سأقتله » . كنت جميلة وقوية . وما اعترى صحتك في السجن لا ينسى .
وحبك لى لا ينسى كذلك . أما صورتك الآن فلا يمكن تخيلها . كم من هموم
تتلاشى لو اعترفت لإلهام بكل شيء . هى تعطيك كل شيء صادق وأنت لم تعطها
إلا حزمة من الأكاذيب . أوى .. لم تصر على الاختفاء ؟ قال : « أمك تظن أنها
قتلتنى وفي الحقيقة أنا الذى قتلتها » . إذن فأنت خيف لأنك قاتل « ولكننى
كيف أهتدى إليك » . وإلهام أنت تغضبها وهى تقاوم بشدة . وتصيح وهى تدارى
ثوبها الممزق « سأقتلك » . سأقتلك أنا لأخفى جريمتى . وارتفع صوت المؤذن
عند الفجر فهاله أنه لم ينم دقيقة واحدة ولكنه تذكر الاغتصاب والقتل فهدت
نفسه قليلا وأدرك أن النوم سرقة وهو لا يدرى بعض الوقت . ولعله حلم
بالسهاد فيما حلم . واستيقظ مرة أخرى فى الساعة وفتح النافذة فرأى الضباب
يزفر على الآفاق ، والسماء طبقات من الألوان القائمة . وترامى إليه صوت
الشحاذ :

طه زينة مديحي صاحب الوجه المليح

وما كاد يبلغ باب الاستراحة حتى رأى عم خليل نازلا متكئا على ذراع على
سريقوس ، متلفعا بالعباءة ، جلس ينظر إليه من بعيد ، إلى يده المعروقة
المرتعشة ، والكوفية السوداء التى أخفت عنقه النحيل . خير ما تفعل يا عم خليل
هو أن تموت . أنا أعرف عنك أكثر مما تتصور . أنت لا تنام إلا بالمنوم وبعد أن
ندلكك كريمة طويلا . وسعادتك تمارسها فى الحنان العقيم ، ولذلك الوهمية
عندما تجردها من ثيابها فتذهب أمامك وتجيء ثم تحبها براحتيك . يستوى لدى أن
يجيئ أوى أو أن تذهب أنت . مرة أوشك أن يقتل فى الكنار الليلي . فى طرفة
المرحاض اعترضه ضابط بحرى وقال له : « اترك عليه فانار وإلا .. » . واشتبكا
فى صراع خفيف . تلقى منه ضربات وكيل له ضربات وحشية . ولم يكف حتى
حين استلقى غريمه بلا حراك . ولم تعد مجرد خبطة للتغلب على الخصم ولكن
اندفاعا جنونيا للقضاء عليه . لولا أن رمى النادل بنفسه عليه صائحا « هل تحب

المشتقة ؟ ؟ . وعند الفجر قالت له أمه « يا حسرتى لما أسمع أننى كنت سأفقدك ! » . وقالت « إذا ضايقتك وغد فخبرنى وأنا قادرة على إرساله إلى القبر » . كما فعلت مع منافسة لها فقتلها رجل من أعوانها ثم فر إلى ليبيا . وقالت الإسكندرية إن بسيمة عمران هى الفاعلة الأصلية . ولكن أين الدليل ؟ . أما أنت يا عم خليل فلن تتغير تغيرا يذكر بعد الموت .

٨

قال صابر يخاطب الأستاذ إحسان الطنطاوى :

— أظن أن الاستمرار فى الإعلان عبث ؟

فأجاب الرجل بتسليم :

— أظن ذلك .

— لا شك أنه اطلع على الإعلان ، هو أو أحد من ذويه .

— هذا هو اعتقادى .

وتدخلت إلهام فى الحديث قائلة :

— إذن فهو يرفض العودة .

فقال صابر :

— أو لعله يقيم فى جهة نائية ، أو خارج القطر .

— على أى حال فالاستمرار فى الإعلان كما قلت عبث ؟

ثم وهى تزدد حماساً لفكرتها :

— كل شئ يتوقف عليه وحده ، والزمن هو الذى يعالج مشكلة من هذا

النوع ، وسوف يعود إليكم عندما يريد ذلك ، كما نقرأ أحيانا عن عودة

الغائبين .

إنها لا تدرى أنه هو المحتاج إلى الغائب وليس العكس . وأنه لا يحتاج إليه حبا

فى الحرية والكرامة والسلام فحسب وإنما خوفا من التردى فى الجريمة . إنها لا

تدرى شيئا عن الجريمة التى تتعقبه ، ولا المأزق الذى سيجد نفسه فيه عندما تنفذ

نقوده فى القريب . ولم يعد فى الطاقة الاستعانة بالحامين ومشايخ الحارات وغير

هؤلاء من المرشدين ، وإنه يفكر كثيرا فى نقض يده من الأمر ولكن لا يهون عليه

الكف النهائى عن البحث . وإذا قرر يوما الكف عن البحث فسوف يندفع فى

طريق آخر كثور أعمى . قال :

— فلنجدد الإعلان للمرة الأخيرة .

وانتظر في فتركوان ، لا يكاد يمر يوم دون لقاء . صار اللقاء عادة جميلة للطرفين . أجل في النصف الثاني من الليل ينسى كل شيء ولكن ما أن ينبلع الصبح حتى تنزع نفسه شوقا وحنانا إلى إلهام . وفي محضرها ترتفع به مشاعره إلى آفاق من السعادة والأنس والصفاء ولكن رغبته الغشوم في كريمة لا تموت ، تغفو إلى حين ولكن لا تموت . جاذبية إلهام لا تخمد ولكن سيطرة الأخرى لا مهرب منها كالقضاء . ولشدة وطأة هذه السيطرة يمتتها أحيانا بقدر ما يعشقها ، وكم نادى باطنه إلهام لكي تنقذه ولكنه نداء اليأس . وشد ما يهرب من هذا السؤال المزعج « من تختار إذا خيرت » ولكنه يدأب على جسده كدمل كامن . أحيانا يمقت وهو ينتظر كالأسير . وإلهام سماء صافية يجرى تحتها الأمان وكريمة سماء ملبدة بالغيوم تنذر بالرعد والبرق والمطر ولكنها أيضا سماء الإسكندرية المحبوبة . وكان يحتسى الشراب على صوت الرعد بالنبي دانيال ويدفئ قلبه بالقبل . وهى تأبى أن تعترف بأنها فتاة عطفة القرشى ، لماذا تخفين الأسرار ؟ لأنك العذاب والشيطنة . وقد التحمت في خياله بهدير البحر ورائحة الماء المالح واليود وحنين الوطن ومغامرات الليالى المفعمة بالشهوات والمعارك البهيمية . وهى مثله تغلى في شرايينها دواعى الفطرة والغريزة والعمى والقحة لا كإلهام نسمة تستقر في ذروة لا يرقى إليها أحد . ونظر إلى عينيها ترنوان إليه وهى تتخذ مجلسها قبالة . وأبدت ملاحظة عن انشغاله فقال :

— عندما أستنفد وسائل البحث فلن أجد عذرا للبقاء في القاهرة .

فأسبلت جفניה وهى تسأله :

— أقررت متى تسافر ؟

— لا أتصور أى حياة خارج القاهرة !

فقالت بصراحة فاتنة :

— ٨٢ —

— كلام جميل أرجو أن تحققه !

— هذا ما أفكر فيه بلا انقطاع .

— وأهلك وعملك ؟

— لكل مشكلة حل ، ينجل إلى ...

ثم واصل حديثه بعد انقطاع قصيرة :

— ينجل إلى أنني لم أجيء إلى القاهرة للبحث عن سيد سيد الرحيمي ولكن

لكي أجذك أنت ، أحيانا نجري وراء غاية معينة ثم نعثر في الطريق على شيء ما

نلبث أن نؤمن بأنه الغاية الحقيقية !

فقلت بصراحة أفن من الأولى ولكن بوجه مورد :

— أما ناحيتي فأنا مدينة لسيد سيد الرحيمي !

قال بنشوة عجيبة :

— ما أجملك ! ، ما أجمل الحب ، هو الحب الذى يشدنى إليك يوما بعد

يوم ، وهو الذى يكمن وراء كل كلمة من كلماتك إليك مهما يكن موضوعها

الظاهرى ، واسمه لم يجر على لساني قبل الساعة ، ولكن لولاه ما كان ثمة مبرر أو

معنى لأى كلمة قلتها ..

فغمغمت شفتاها بكلمات لم تسمع ، فتساءل :

— أليس كذلك ؟

فقلت مستردة شجاعتها :

— بلى ، وأكثر ..

وانتشى لحد الطرب ، وأعرب عن نشوته بضغطة رقيقة من راحته فوق ظهر

كفها ، ثم تذكر أنه سيلقى كريمة بين ذراعيه بعد ساعات فساوره القلق ،

وخاف العينين الزرقاوين السعيدتين ، ثم تراءت له أخيلة مظلمة نفثت في أعصابه

بهيمية خفية . آه .. كثيرا ما عشق أكثر من امرأة في وقت واحد بلا عذاب ولا

قلق . ولكنه مع إلهام تعذبه كريمة ومع كريمة تعذبه إلهام والتوحيد بينهما أمنية

لا يجرؤ على تمنىها .

وسألها هاربا من أفكاره :

— خبريني ألم تعرفى الحب من قبل ؟

فقالت بلا تردد وهى تبسم :

— لا ، لا أظن ، عواطف الصبا وهمية ، وأين هى ؟ ، لا أتر هناك لها ، وهى كانت موجهة إلى مثل كبير قد مات من زمن ، لا ، لم أحب قبل هذه المرة ، ولكنى خطبت مرة وفسخت الخطبة عندما طالبنى بالاستقالة من وظيفتى ، وبعض الزملاء فى الجريدة يكلموننى عن الحب بأسلوب الصفحة الأخيرة من الجريدة ، كل ذلك هو لطيف بلا غاية ، سأحدثك عن ذلك كله فيما بعد ، على شرط ألا تسافر ، أو على الأقل ألا تنسى القاهرة ..

— قد أسافر إلى آخر الدنيا ولكنى لن أنسى القاهرة !

— حسن أن أسمع ذلك ، ولكن ما شأنك أنت مع الحب ؟

— ما عرفته ينبغى أن يكون له اسم آخر .

— إذن فلنمر عليه بسلام ، وأنا أفهم الحياة بدرجة لا بأس بها ، وعندما أنظر

فى وجهك لا أشك فى أننى أرى وجه رجل صالح ..

سيطر بسرعة على دهشته ثم تساءل باهتمام :

— ماذا تعنين ؟

— لا أدرى ، أنت ... أنت .. أعفنى من التعاريف ، شئ يشع من

عينيك أقنعنى :.. هو المسئول .. هو المسئول عن عواطفى الصادقة ، الأفضل

أن تتكلم أنت !

العيان الصافيتان لا تريان ، أيدل وجهه حقا على أنه رجل صالح ؟ . وأين

ذهبت عريضة الحياة والدعارة البهيمية ؟ . وأمه وأساطيرها ونزوات الليلالى

المرعبة ؟ . يجب أن يبيىء الأب لينتشله من مأزقه ويطرد الأكاذيب . قال :

— لا أود أن أمدح نفسى ولكن حبى دليل على أنى إنسان خير مما كنت

أظن !

— أكثر من ذاك ، انظر كيف تشقى بالبحث عن أخيك ، أعرفته يوما ما ؟
— كلا .

— ومع ذلك فأنت تجد وراءه كما لو كنت عاشرتك العمر كله ، أليس ذلك

نبلا ؟

لعنة الله على الكذب . لذلك يفقد حديث إلهام معناه كأنه الصمت .

— ما هي إلا مهمة كلفت بها ..

— ولو ! ، ثم إن تحقيقها ليس في صالحك من الناحية المادية فلا تنكر نبلك ! .

كريمة مثله تمرغت في التراب طويلا وهما يتفاهمان حتى على البعد . وفي أعماق لحظات الحب الحارة تنمالك أنفاسها لتهمس في أذنه « متى تختفى العقبة التي تهدد حينا » فيمسره رعب الوعي كصفعة مباغطة وتهمس تضاعيف الظلام بالجريمة . أما إلهام فلا تقرأ في وجهه سطرا واحدا من الجريمة . ولا يجرى لها على بال أنه يقتل للاستئثار بامرأة أخرى . وأنه بات يشم رائحة دم مسفوك . وأنه لا معنى لتشبث عم خليل بالحياة إلا أن يدفعه إلى مصير محتوم . ولأنك يا إلهام لم تنقذيني من الهاوية أحببت وأنت لا تدرين مجرما . وإذا مضيت في الكذب عليك فسوف أجن . ولم تضعف أنت أمام الحقيقة بالرغم من أنك قاتلت حتى أوشكت أن تقتل ، وأنت تفكر طويلا في القتل ؟ . قل أنا فقير معدم ، والرحيمي أبي لا أخى ، وأنه إن لم يعترف بى فلن أساوى حفنة من تراب ، وماضى غارق في الدعارة والفضيحة . آه .. ستصرخ من الفزع . وينطفئ شعاع عينيك الذي يلهم الحب . ثم ترى هي الوجه الصالح على حقيقته . لو أنشأتك أملك نشأة مناسبة لكنت اليوم قوادا سعيدا ، لكنها صانتك في النبي دانيال لتعذب أبد الدهر . ثم أحببت أباك لتحرملك نعمة اليأس .

— ماما لها رأى ، هي تعرف عنك الكثير ، وقالت لم لا ينشئ عملا في

القاهرة ؟

ماما !. إنه يخاف الأمهات . كأمه تستطيع أن ترى حقيقته بنظرة واحدة .
لن يعميها الإشعاع المزعوم الذى يشع من عينيه .

— أى عمل ؟

بعد تردد :

— هذا يتوقف على استعدادك !

قل لها إنك تتقن السكر والرقص والعراك والحب .

— إدارة الأملاك هى خبرتى الوحيدة !

— لا مؤاخذه ، ليس عندى فكرة عن دراستك ؟

تذكر المدارس الوطنية والأجنبية التى عبرها عبور المتفرج .

— والذى لم يتركنى أكمل أى نوع من التعليم لحاجته إلى وبخاصة عقب

مرضه !

— فكر فى مشروع تجارى ، وأنا أعرف من زملاء أناسا متنوعى الخبرة .

— حسن ، سأفكر فى ذلك ولكن بعد مشاورة أبى !

وقال لها وهو يودعها :

— من المؤسف أن هذا المكان لا يسمح لى بأن أقبلك .

العقل ينصح به بأن يهجر إلهام ولكنه لا يستطيع . هى كأييه فيما تعده به وفى

أنها حلم عسير التحقيق . أما كريمة فامتداد حى لأمه فيما تحبه من متعة وجريمة .

ارجع إلى الإسكندرية واعمل قوادا لأعدائك . اقتل واغنم كريمة ومالها .

استخرج الرحيمى من الظلمات وتزوج إلهام . آه .. وشتاء القاهرة قاس ولا

يضمّر المفاجآت ولا يعزف موسيقى السماء . وما أرحم شوارعها ومحالها فهى

سوق تتلاصق فيها الأجساد والسيارات . وأكثر من امرأة تجدفك ما تبحث عنه

بنظرة واحدة حين تشقى أنت عبثا فى البحث عن الرحيمى . لعله هلفوت

ضحك على أمك فأوهما بأنه من الوجهاء . وكثيرا ما يجد لحظة من صورة أبيه

المتخيلة فى هذا الرجل أو ذاك بين مئات من الوجوه المتتابعة . إنه يرفضه أو لعله

يخافه أو لعله ميت . وفي الشتاء سرعان ما تنجح الشمس للمغيب وترتفع أمواج الظلام . ولدى رؤيته عم الساوى سأله عمن يعرف من رجال الله القارئين للمغيب فدلّه على رجل بالدرب الأحمر يدعى الشيخة زهرة ، ولما بلغ مسكنه وجده مغلقا محتوما بالشمع الأحمر وقيل له إن البوليس قبض عليه بتهمة الدجل . وتسأل صابر متى كان الدجل تهمة ؟ . وعندما رأى الفندق وهو راجع إليه أثار فيه شعور برتابة البيت وكآبة السجن . وجلس في الاسراحة وهى أهلة تضج بالأصوات وتختنق بالدخان .. ومن عجب أن الأحاديث لا تكاد تتغير رغم أن

الوجوه تتغير كل يوم . وسمع رجل وهو يتسأل :

— ألا يعنى هذا فناء العالم ؟

فقال بلا وعى :

— فى ألف داهية !

وتعالت ضحكات فأيقظته ، وسأله سائل :

— حضرتك مع الشرق أم الغرب ؟

فقال وهو آسف على تورطه فى حديث لا يهمه :

— لا هذا ولا ذاك !

ثم تذكر جملة متاعبه فقال بتأفف :

— أنا مع الحرب ! ..

فى تلك الليلة لم تأت كريمة فى ميعادها . انتظر فى الظلام عامر الرأس بخيالات الشراب . ومن الفراغ جسد صوراً يصير بها شهوته ، ومرت ساعة كاملة بعد منتصف الليلة ولم تأت . هو لا يدري شيئاً عما يحدث فوق السطح ولكن كريمة لم تتخلف ليلة واحدة مذ طرقت بابه لأول مرة . وتقدم الوقت ساعة أخرى ساحقاً أعصابه فيئس من ليلته وأيقن أن مجيئها بعد ذلك سيكون عبثاً . وجعل ينظر صوب الباب مرهف السمع ولكن اليأس كثف الظلمة . وظل مسهداً حتى انطلق صوت المؤذن فقال إنه ينادى بفناء هذه الليلة . واستيقظ حوالى العاشرة فسخر من نفسه قائلاً : « ليكن حساب عسير » ونزل إلى الاستراحة فتناول فطوراً خفيفاً وراح يراقب من بعيد علاقة المودة التى تؤاخذ بين عم خليل ومساعدته الساوى . وتساءل متى ينزل فيجد مكان عم خليل خالياً ؟ وكيف يسأل كريمة عن أسباب تخلفها ؟ . وفجأة قامت معركة كلامية بين اثنين من النزلاء لم يدرك سببها ولكنه تابع باهتمام حركة أيديهما العصبية وكلماتهما الحادة وتهديداتهما التى لم يتحقق منها شيء ، ثم شعر بضجر غير محتمل .

وقرأ فى وجه إلهام — فى أثناء تناول الغداء — اهتماماً أضفى عليها فنتته جديدة ملحوظة . انجابت عنه هموم كثيرة وعاوده شيء من المرح فقال :

— أعترف لك بأننى لا أجد لحياتى معنى إلا عند اللقاء .

فحدجته بنظرة إرادية وقالت :

— الحق أنى لا أنقطع عن التفكير فى حياتنا .

عاتبها فى باطنه على توانيها فى امتلاكه والسيطرة عليه ، وعلى هزائمها غير العادلة أمام عدوتها الطاغية . أنت مسئولة عما سيقع . قال :

— يسعدنى أن أسمع ذلك ، وأنا بدورى لا أنقطع عن التفكير !

— هات ما عندك ؟

قال وهو يلعن نفسه وأكاذيبها :

— أفكر فى أمرين : العمل والزواج !

— هل اقتنعت نهائيا باقتراحى ؟

— أجل ، ولكن على أن أتم مهمتى على أى وجه أولا ثم أسافر للاتفاق مع
أبى ..

كره نفسه لحد الموت ، وتمنى أن يحق أكاذيبه دفعة واحدة وليكن ما
يكون . وقال إنه لم يعرف هذا النوع من الألم المحير قبل ذلك . وبدافع كالاستغاثة
قال :

— لنذهب إلى سينما هذا المساء .

فى ظلمة السينما أخذ راحتها فى يده . الظلمة دائما . ورفع يدها إلى فمه فلتشمها
فى سعادة عجيبة . وتشمم منها عبرا طيبا فى سرحة طائفة . وقال إنه يستريح من
الاحترق والجريمة أما العذاب الذى يخشى أن يعذبه فى النصف الثانى من الليل
فيطرده عن باله . وهست لإهام متسائلة :

— أليس هذا ظلما بينا ؟

ولم يكن يتابع الفيلم بحال فهمس مداعبا :

— افتراقنا ساعة واحدة ظلم أفظع !

وتركز فى الشاشة لأول مرة فرأى رجلا يضطهد فتاة وسمع حوارا عنيفا ،
ولأنه لم يتابع القصة من أولها بدا له المنظر حركات وكلمات لا معنى لها . كما
نشاهد أجزاء من حياة الناس منقطعة عن ملابسها فتمر بها دون اكتراف وأحيانا
ضاحكين مما يستحق الرثاء . وكم يبدو بحثك عن أبىك من خلال الإعلان
مضحكا ومغريا بالمزاح . وهل تجيء جريمة الليلة فى ميعادها ؟ . أو يتعذب حتى
الفجر ؟ . وكيف تنجلى هذه المتاعب كلها فى البحث والحب ؟ . ولحظ لإهام فى
لحظات المناظر الشديدة الإضاءة فرأى استغراقها فأحنقه ذلك وأوقف مداعباته

لراحتها ، وأراد أن يسحب يده ولكنها شددت على أصابعه فشدد على راحتها ممتنا .
وغادرا السينما فأوصلها إلى محطة الباص ومضى إلى بقالة الحرية بكلوت بك فأكل
بسطرمة وسردين وشرب نصف كونياك . ورجع إلى حجرته عند منتصف
الليل فلبث في الظلام ينتظر . ولم يعد الغيب بأى أمل ، واشتد الصمت خارج
الحجرة كالصمم .

وتتابعت الدقائق في عذاب وحرق . لا .. لم يعرف هذا الذل من قبل . ذل
الرجبة الجائعة .. ذل البحث الخائب .. ذل الخوف من الذل . ولحقت الليلة
بسابقتها مسهدة ملعونة مصدعة . ورسم أن يوجد بالفندق في عصر اليوم التالي
فشهد نزول كريمة إلى مجلسها بجانب زوجها كما رآها أول مرة . تفشى عذاب
الرجبة في كيانه فهاله أن تستأثره المرأة لهذا الحد . وتجنبت أن تنظر ناحيته وهو في
ركن الاستراحة يتصيد . لا تعرف جنونى فهي لا تحشى عواقبه . ولما قامت
لتصعد إلى شقتها التقت عيناها لحظة عند استدارتها فرمته بنظرة محذرة ثم
ذهبت . ما معنى هذا التحذير ؟! العجوز لم تتغير معاملته لها وهو في سن لا
يملك معها قوة أعصاب لمدارة ما في نفسه . وفكر أن يلحق بها في الدور الثاني أو
الثالث ولكنه لمس سرعة صعودها كأنما حسبت حساب أفكاره فأعادت
التحذير بصورة أخرى . الأيام تمر والنقود تتناقص وحكاية الأب أمست
أسطورة سخيصة لا يركن إليها بحال . ولا غنى له عن هذه المرأة فهي حياته والأمل
الباقى له في الحياة . وتكرر التسكع بالليل في كلوت بك والسكر والانتظار في
الظلام ليلة وليلة وليلة . وهو راجع عند منتصف الليل قال محمد الساوى بصوت
نعسان :

— سأل التليفون عنك عصر اليوم .

آه .. لم تعد أبناء التليفون تهز أعماقه ولكن آه لو يخلف ظنه ويحييه بالمعجزة
في هذه اللحظة من اليأس والعذاب !. قال الرجل :

— صوت امرأة ..

— بخصوص الإعلان ؟

— كلا ، سألت هل أنت موجود فقلت لها إنك لم تعد بعد فأغلقت
السكة !

إلهام ؟ من شدة نكده لم يقابلها في اليومين الأخيرين . ولما خلع بدلته وأطفأ
المصباح سمع نقرة على الباب !. وثب وثبة مجنون وفتح . شد على ساعديها بقوة
وهتف بغضب وشي رغم زيجرته بالراحة السعيدة .

وجذبها صوب الفراش وهو يقول :

— أنت !.. الويل لك ..

— أنت تمزق لحمي !

— كما مزقت أعصابي !.

— وماذا تعرف عن عذابي أنا ؟.

أراد أن ينزع عنها الروب ولكنها أمسكت بساعديه :

— كلا .. البقاء مجازفة غير مأمونة .. سأقول كلمة ثم أذهب ..

— ادعى الشيطان ليدافع عنك !.

— أنت سكران ولكن اضبط نفسك ، حركة بسيطة قد تهدم كل ما بيننا .

أجلسها إلى جانبه على حافة السرير وهو يسأل :

— ماذا حصل ؟.

— عند رجوعي آخر مرة من عندك استيقظ على غير عادة وسألني هل كنت

طوال الوقت إلى جانبه فاعتذرت بالعدو المألوف وخيل إلى أن على سرياقوس

الحنى ، لست متأكدة ولكنني خفت خوفاً شديداً !

— لعلها أوهايم !.

— لعلها ولعلها ، لا يجوز أن نحازف بكل شيء ، سنخسر الحب والأمل ،

كلمة واحدة منى تقضى على بالفقر الأبدى لا تنس ذلك .

وتهدت ثم استطردت :

— ٩١ —

— لذلك امتنعت عن الجيء ، ولم أستطع بطبيعة الحال أن أفسر سلوكي ،
وقدرت وأنا في غاية من العذاب حالك وأفكارك ، ولكن الرجل لم يكتب كل
شيء باسمي إلا بعد أن أخذ على عهدا بالوفاء ، قال أنت يدي وعيني وابنتي
وزوجتي ، لا تنغص على صفو الأيام الباقية ..

— إذن ؟

— وإذن فيجب أن أمتنع عن الحضور بتاتا ، هذا هو الأسلم .

— هذا جنون !

— هذا هو العقل .

— كيف أنتظر ، إلى متى أنتظر ؟

وهي تتنهّد :

— لا أعرف الجواب كما تعلم .

— وسوف تنفذ نقودي وأضطر إلى السفر .

— يمكنني أن أمدك بالقليل منها لإطالة بقائك أكبر مدة ممكنة .

— لن يغير هذا من المصير المحتوم .

— أعرف هذا ولكن ما الحيلة ؟.. أنا معذبة مثلك .

— أنا أشد ، أنا مهدد بالعذاب والإفلاس معا .

— وأنا أتعذب لنفسي ولك ، كيف لا تدرك هذا ؟

تساءل وكأنما يخاطب نفسه :

— متى يموت الرجل ؟

— أنت تسألني كأنني مطلعة على الغيب !

— وماذا أنت إذن ؟

— امرأة تعيش ، أتعس مما تتصور .

— قد يسخر من مخاوفنا الموت ويموت فجأة .

— هذا محتمل .

— رجل طاعن في السن ولا يمكن أن يعيش إلى الأبد .
— قد يموت الليلة وقد يموت بعد عشرين عاما في سن أخت له ماتت منذ
عامين !

— اللعنة .

— لا حيلة لنا ، ويجب أن أذهب الآن .

— ولا أراك إلا بعد موته ؟

— قلت لا حيلة لنا .

— بل هنالك حيلة .

وصمتا في الظلام حتى سمعا هسيس الصمت ، وإذا به يقول :
— أنت تذكرينني طيلة الوقت بحديث قديم ، حديث إشارات متقطعة
يشهد عليها هذا الظلام ، فلتتكلم بالصراحة هذه المرة .. على أن أقتله .!؟.
قالت بنبرة مضطربة :

— أنت لا ترتاح إلى هذا الحديث ، لذلك نبذته ، لست قاسية ولا
متوحشة ، عيبي الوحيد أنني أحبك بجنون ، الأفضل أن تنتظر ..

— حتى يموت في سن أخته ؟

— حتى يأمر الله بما يشاء .

وركبه تصميم جنوني فنهض في الظلام ، يائسا كل اليأس ، ثم جلس مرة
أخرى شاعرا بالتهاب رغم برودة الجو ، تساءل :
— ماذا بعد الجريمة ؟

لم تنبس بكلمة ، وأحس الظلام دخانا كثيفا :

— لا تضيعي الوقت هباء ، ماذا بعد الجريمة ؟

سمع همسا غير مبين كأنما تريد أن تتكلم فتمنعها شرقة . ثم جاء صوتها كأنما
يزحف من جحر :

— ننتظر فترة .. لكن في أمان .. ويمكن أن نلتقي في خفاء .. ثم أكون لك أنا

والثروة ..

قال وهو يكرر يده في الظلام :

— اليأس لا يدع لنا سبيلا ولا وقتا للاختيار .

— للأسف .

— ولكن ماذا ينبغي أن أفعل ؟

قالت بعد صمت أقصر بكثير مما قدر :

— ادرس العمارة الملائمة للفندق .

آه هي مبيتة كل شيء . الجريمة جاهزة في رأسها الرقيق ، مغفور لها كل شيء

ما دام قد دبر في سبيل حبه .

— شقة مأجورة لخياطين وبياعين بدل نصف عمر ، فهي تخلو ليلا ، ولا

يصعب الدخول أو الخروج منها .

— هذه هي العمارة .

— سطحها ملتصق بسطحنا !

— يعني الانتقال سهل .

— تجيء إلى سطحنا ، يجب أن تنتظره في الشقة !

— أظنه يصعد إلى شقته بين الثامنة والتاسعة ؟

— وليكن في اليوم الذي أذهب فيه إلى زيارة أمي وهي ميعاد معروف من كل

شهر .

قال بدهشة :

— لا أصدق أنني لم أكد أتم شهرا في الفندق !

— ومن السهل بعد ذلك أن تنتقل إلى العمارة التي جئت منها .

فقال بارتياح :

— كثيرا ما نسمع عن جرائم من هذا النوع عند اكتشافها !

فالت بيرود :

— ٩٤ —

- لأننا لا نسمع إلا عن الجرائم التى تكتشف .
جبارة ، كأملك أو أكثر !
— أهذا هو كل شيء ؟
— كلا ، يجب أن تقع سرقة لتبرر القتل !
— وماذا أسرق ؟
— دع ذلك لى ، احذر أن تترك أثرا ، إن الكلاب تجرى وراء الأثر !
— يبدو أن التنفيذ سيكون غاية من الأحكام .
— حياتنا حياة واحدة ، فإذا قضى عليك قضى على ، ولا حيلة لنا فى البحث
عن طريقة للخلاص من الألم والجنون .
وهز رأسه قائلا فى حيرة :
— جنون ، جنون ، هل تصدقين أن شيئا من ذلك سيقع ؟
فقالت ببرود :
— ادرس العمارة جيدا ، أمامك أيام احذر أن يراك أحد وأنت تنتقل من
سطح إلى سطح ، أنت جرىء وإلا فلا يجوز أن أدعى أنى أفهم شيئا فى الدنيا ..
ومضى يفكر . أما هى فقالت :
— لنبدأ من الأول من جديد ، خطوة فخطوة حتى لا يفوتنا شيء ..

تذوق اللبن والبيض والفاكهة وانظر جيدا إلى هؤلاء الناس في الاستراحة
فعما قريب ستختلف عنهم جد الاختلاف . وعندما يأتي الليل ستكتسب صفة
دموية غريبة فتنضم إلى طائفة المجرمين . ها هو عم خليل أبو النجا ، الصباح
البارد ، يده لا تكف عن الارتعاش ، ولا يفكر في الموت . سيقف عمرك عند
العاشرة مساء ، أنت لا تعلم ولكنني أعلم ، فلا تشغل بالك بمتاعب الدقيقة
التالية ، تقبل نصيحة أخ بائس ، ولعل الآن أشارك الله في بعض علمه بالغيب ،
مذ قبلت أن أكون قاتلا . ورن جرس التليفون فضحك ضحكة سمعها الأقربون
من حوله ، أهو سيد سيد الرحيمي يبيء في اللحظة الحاسمة ليغير المصير
المحتوم ؟ ، ورفع عم محمد الساوي السماعة ثم قال : « لا .. لا يا حضرة » .
لا .. لا .. وأنا أقول لا يا سيدى الرحيمي ، أنت تنكر ابنك وابنك سينكرك ،
ليس في حاجة إليك ، سيبحث عن الحرية والكرامة والسلام عند غيرك . هل
أنت تشاء يا عم خليل فحتام تغالب النوم الأبدى ؟ . لماذا تصر على جرى إلى
مصير محتوم ؟ . ما معنى أن يتمتع بمالك سالب حياتك ، وأن تسقط أُمى بلا
عقل ، وأن يصمت أبى بلا رحمة ، وأن تتعلق آمالى بإزهاق روح ، خبرنى عن
معنى ذلك كله ، أسبوع مر ولا فكر إلا في الجريمة وكم كانت الأحلام مختلفة
عندما تحرك القطار من محطة الإسكندرية ، وهؤلاء الرجال ألم يرتكب أحدهم
جريمة ! . ثرثرة المال والحرب والحظ التي لا تنتهى ، ونبوءات عن جرائم الغيب ،
وغفلة تامة عن جريمة تدير تحت أعينهم .

حوالى العاشرة غادر صابر الاستراحة فحيا عم خليل ومضى إلى الطريق وهو
يقول لنفسه « غادرت الفندق في العاشرة ولم أرجع إليه قبل الواحدة صباحا »
ألقي نظرة على مدخل العمارة المجاورة ، كأنه سوق لكثرة الداخلين والخارجين

ثم قال لنفسه : « السطح خال ، ولا يرى من مكان قريب ، والظلام ينتشر ابتداء من الخامسة مساءً » . فكر في زيارة إلهام بالجريدة ولكنه افتقد التركيز الضروري للزيارة ، وكره محادثتها وهو ينضج بالدم . وماذا يقول لها وهو يهجر طريقها إلى الأبد ؟ . ومر أمام الجريدة وهو حزين حقا . وتخيل مجلس إلهام ، ونظرتها ، وسؤالها المؤلف عن الرحيمى ، ولفتاتها الرقيقة ، وعجزه عن الارتفاع إلى مسئولية حبها . وقتل الوقت بالمشي في الشوارع ، وتناول غداءه في بقالة الحرية بكلوت بك وشرب كأسين . وقال له البقال :

— الجوردي .

فقال وهو يغادر المحل :

— أنا مجرم من سلالة مجرمين !

ومضى وضحكة الرجل تودعه . وصمم فجأة على مقابلة إلهام في فتركوان ولكنه لم يجدها ، وقيل له إنها ذهبت عقب الغداء مباشرة ، وأفاق من تصميمه المندفع فجفل من فكرة زيارة الجريدة . ولبث في المحل حتى الخامسة ثم مضى إلى شارع الفسقية فوقف تحت البواكى في شبه ظلمة على الجانب المقابل للعمارة المجاورة للفندق . وهو يتفحص المكان . وارتفع صوت الشحاذ بالمديح غير بعيد من موقفه فتقرز من المفاجأة ، وانتهر فرصة انشغال البواب بمساومة بائع خس فعبر الطريق إلى العمارة ودخل . شق سبيله في مدخل مزدحم . ورق في سلم مزدحم كذلك وصاحب ، بين أبواب مفتوحة على شقق مكتظة بالعمل والزبائن . وقد وقعت عليه أعين كثيرة ولكنها لم تره . وجعل يختلس النظرات إلى الوجوه ليرى إن كان ثمة أحد يعرفه من نزلاء الفندق ، حتى بلغ السطح في أمان ، في الفضاء تبدت الظلمة أقل كثافة فرأى السطح مغطى بالنفايات ولكنه خال من الآدميين . اطمأن نوعا ونظر فيما حول سطح العمارة فلم ير مبنى يطل عليه ، ثم استقرت عيناه على سطح الفندق فرأى — متفصلا — كريمة وهي تجمع الغسيل . هي تنتظره بلا شك ، ولعلها رأته وهو يعبر الطريق إلى مدخل العمارة ، ويدها

مهتمتان بفك المشابك ولكن وعيها مركز في طرف عينا المتجسدة . رأته عند مدخل السطح فأشارت إليه بالاقتراب فدلّف من السور وقد انحصر وعيه في تصميمه الجريء كاسحا وساوسه واضطرابه ، وظلت مولية ظهرها كأنها لا تشعر به ، وسألته :

— هل رآك أحد يعرفك ؟

— كلا ..

— على سرياقوس تحت ، سأقف عند رأس السلم حتى تعبر السور .
وذهبت حاملة الغسيل حتى غيىها جدار الشقة الذى يشطر السطح فنظر حوله بحذر ثم وثب إلى السور وهبط فوق سطح الفندق وتقدم في أثرها ثم وقف أمام مدخل الشقة . أطل رأسها من وراء باب السطح وهمست :

— الباب مفتوح فادفعه وادخل .

اتجه نحو الباب وبضغط عليه براحته فانفتح . شهق بعمق ثم زفر ، ودخل في دهليز غارق في الظلمة فتسمر وراء الباب . وما لبثت أن لحقت به فأغلقت الباب وأضاءت المصباح . رآها شاحبة الوجه بראה العينين ، ولا أثر هناك لحيوتها القاتنة ، تعانقا بلا مقدمات وبعبسية وعنف ولكن بلا روح ولا حس ثم انفصلا وهما يتبادلان نظرة ذاهلة . قال :

— أى خطأ سبيلكنا .

فقالت بنبرة جافة :

— ثبت قلبك ، كل ما حولنا مطمئن ، وسينتهى كل شيء كما رسمنا .
وتقدمته لتريه الشقة الصغيرة ، من الدهليز إلى حجرة كبيرة أعدت للنوم ، متصلة بباب مشترك بحجرة أصغر للسفرة والجلوس ، وسوى ذلك لا توجد إلا المرافق . ألقى نظرة على أثاث الحجرة الكبيرة فخيّل إليه أن للسريـر والصوان والكنبة التركية أعينا ترنوا إليه بيروود وعدم اكتراث ، وأوشك أن يقصص عن مشاعره ولكنه خجل من ذلك واكتفى بقوله :

(الطريق)

— الحجرة كئيبة ..

فأجابت وكانت تفيق رويدا رويدا من صدمة اللقاء والتسلل :
— ربما ، المهم أنك ستنتظر هنا في حجرة النوم ، ويجب أن تختبئ تحت
السريـر بمجرد أن تسمع الباب الخارجى وهو يفتح :
— الأرض خشب ؟

— أجل ، ومغطاة بالبساط ، البساط يغطى أرض الحجرة كلها ..
— طبعا سيفلق الباب الخارجى ؟
— طبعا ، الساوى يوصله عادة وخاصة حال غيـابى ، وهو يغلق الباب
بنفسه ، وغالبا ما يترك المفتاح فى القفل أو يضعه على الترابيزة ، وستفتحه
وتخرج ..

— ألا أفاجا بوجود أحد فوق السطح ؟
— كلا ، على سريـقوس ينزل بعد توصيل الرجل وهو ينام فى الدور الثالث .
— سيسألون كيف دخل الـ .. ؟
— ستكون النوافذ مغلقة ، فإما أنه نسى أن يغلق الباب بعد ذهاب الساوى ،
أو أنه فتح لطارق ..

— هل يعقل أن يفتح لطارق قبل أن يسأله عن هويته ؟
— لعله سمع صوتا يعرفه !
— وتتنجـه الظنون إلى من يعرفهم فى الفندق ؟
— قالت ببرود :

— هذا حسن ، لن يقع برىء ، والمهم أن تنجو أنت ..
ثم أشارت إلى حقيبتها وقالت :
— تمت السرقة المطلوبة ، بعض حلى وبضعة جنيـهات . وقد فتحت باب
الصوان بنصل سكين وبعثرت الملابس ، هل أتيت بالقفاز ؟
— نعم .

- حسن جدا ، وإليك قضيب الحديد ..
- أشارت إلى القضيب فوق الترابيزة وقالت :
- أحضرته من الطقيسى ، وكان رجل كرسى ولادة أثرى فلا تمسه إلا بالقفاز احذر أن يسقط منك شيء وأنت تحت السرير .
- خيل إليه أن وجهها ذبل تماما من شدة إشعاع عينها . قالت :
- يجب أن أذهب .
- وتعانقا كما تعانقا أول مرة ثم قال :
- ابقى بعض الوقت ..
- ولكن حان وقت الذهاب .
- ألم تنسى قول شيء ؟
- ثبت قلبك . وتصرف بعقل فى كل خطوة تالية ، ور ...
- وماذا ؟
- حدجته بنظرة غريبة ثم همست :
- لا شيء ، ادخل تحت السرير .
- وتعانقا للمرة الثالثة ، كأنما يتشبث بها . ثم مضت إلى الخارج وهى تنادى بأعلى صوتها على سريقوس فسارع بالدخول تحت السرير . وعادت كريمة يتبعها الرجل فأمرته بأن يغلق النوافذ ويتأكد من إغلاق الأبواب . وانتظرت حتى قام بمهمته وأطفأ النور ثم ذهب معا ، خرج صابر من تحت السرير ، ثم وقف بجذر ، فى ظلام حالك . الظلام ضرب من الاختناق ، وضياع وعدم . ولبس القفاز بعناية . وجال بيده متحسسا حتى عثر على الترابيزة ثم تناول القضيب وشد عليه بقوة . وارتد إلى موقفه الأول ثم جلس على حافة الفراش . اختفت الدنيا ، لا شيء سوى ملمس الفراش ورائحة الصمت الآخذ فى الاستفحال . لا مفر فيجب أن تهوى الضربة بإحكام . والانتصار بضربة واحدة خير من العناء والصبر . والانتظار العابت ، والبحث الضائع . وحب إلهام سحابة شفافة

ولكنها أشق من القتل . ومدح الشحاذ يترامى فهو لم يأو إلى جحره بعد . نواء ضائع كالإعلان ، وثروة الأم المصادرة . ومتى تعانق كريمة بحرارة وأمان ؟ . وذوبان الأعصاب في الظلام محنة ولكن وراءك إرادة من حديد وقلب ينطلق إلى مراده الجهنمي كالشهاب .

وهذا صوت على سريقوس فوق السطح يغنى :
أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل
ثم لا شيء إلا الظلام وصوت الصمت .

وأخيرا سمع المفتاح وهو يدار في القفل فهبط إلى الأرض وزحف تحت السرير . وسمع وقع أقدام قادمة ، ثم فتح باب الحجرة وسطع النور . انكمش في اضطراب وتوثب . ورأى فوق الأرض ست أقدام . وارتفع صوت عم خليل قائلا :

— اذهب يا على ولا تنس أن تحضر السباك .
ذهبت قدمان . وجلس عم خليل على حافة الفراش فاستقرت على بعد ذراع من عينيه . وقال :

— سأقابلة غدا ولن أقبل مزيدا من المساومة .
— هذا هو الرأي .
— رجل دنيء ، رأى الموت أربع مرات بعينيه ولم يتعلم !
— ربنا يطول عمرك .
وساد صمت فتساءل محمد الساوى :

— هل أفوتك بعافية ؟ .

تأوه الرجل قائلا :

— كلا ظهري يؤلمني وعندى صداع .

إلى متى يقيه معه ؟ . هل يبيت معه ليلته ؟ ، سرت في جسده رجفة من القلق . وإذا بالرجل يقيم الصلاة وهو جالس ، ثم يسترسل في صوت مسموع :

— ١٠١ —

استقبلت قبلك

واترجيت عفوك ورحمتك
يا أرحم الراحمين أدخلني جنتك

وواصل صلاته حتى السلام ، ثم قال :
— ساعدنى فى خلع العباءة والحذاء يا محمد .
وبعد هنيهة قال :

— ناولنى زجاجة المنوم من الدرج .

أين هذا الدرج يا ترى ؟. إن كان فى الصوان فقد انكشفت كذبة السرقة المدبرة . وانتظر وكأنه يتوقع انفجار قنبلة وهو يتابع صغيرها . ولكنه سمع الرجل وهو يرشف الماء ، ثم شعر به وهو يستلقى فوق الفراش . وسمعه يقول :
— لن أستطيع القيام لإغلاق الباب وراءك ، أغلقه من الخارج ، وافتحه فى ميعاد الصباح ، مع السلامة .

حياه الساوى وأطفأ النور ثم أضاء المصباح السهارى وانصرف ، سوف يفتح الباب صباحا فيجد صاحبه جثة . كيف دخل القاتل ؟. كيف يذهب عقب الجريمة ؟. آه العقل. مشئت . المهم التنفيذ لا تخمين آراء المحققين . ضربات قلبك تشوش عليك أفكارك . ورغم الدراسة السابقة يجد فى كل لحظة جديد . هل ينام قبل أن تنفجر أعصابك ؟.

وارتفع الشخير . كشخير أملك فى الليلة الأخيرة . والكفن كعود جاف . وبكاء السماء من زجاج الشرفة بالنبي دانيال . قطب فى تصميم طاردا خواطر الأحزان ثم زحف . زحف حتى خرج جسمه كله . وقف يحذر شديد قابضا على القضيب . رأى الرجل مختفيا من الرأس إلى القدم تحت الغطاء . رأى رأسه المغطى بارزا تحت الوسادة . ارتاح جدا لاختفائه وانبعث فيه جرة جديدة . اقترب من الفراش خطوة رافعا القضيب إلى أقصى ذراعه . وإذا بالرجل يزج طرف الغطاء عن وجهه ويميله إلى ناحيته . ارتعد صابر وتسمر جسمه وذراعه

المرفوعة . وفتح الرجل عينيه فالتقيا بعينيه . ولم يد منه ما يدل على أنه رآه أو اندعر . أفاق صابر من الصدمة بجنون . هوى يده بكل قوة على الرأس فوق الطاقية ، وتراجع ذاهلا عن تكرار الضربة . ند عن الرجل صوت لم يتبين حقيقته وعبثا حاول فيما بعد تحديده .. تأوّه .. صرخة .. شخير .. حشجة ؟ . وانتفض الجسم تحت الغطاء انتفاضة خفيفة فيما رأى ثم همد . وبسرعة حول عنه عينيه فاستقرتا على النافذة . لم يفكر أبدا في التأكد من موته . اقترب من النافذة ثم فتحها . ومرق منها معتمدا على ساعديه . ردها وراءه وازدرد ريقا جافا لأول مرة . آه .. هل القضيبي ملطخ بالدم ؟ . والسطح المجاور خال كما توقع . كم الساعة يا ترى ؟ . وعبر السور . لماذا لم يغسل القضيبي في الحمام ؟ . هل يتخلص منه هنا ؟ . جنون . هل يرميه في الجهة الخلفية للعمارة ؟ . جنون وسخف وثمة أصوات آدمية آتية من أسفل السلم . أطل من فوق الدرابزين فرأى الدور الثالث غارقا في الظلام ، ولكن نورا ينبعث من شقة في الدور الثاني انعكس على الدرابزين والجدار وراءه . ومسح القضيبي بفردة القفاز اليسرى . ثم قبض عليه بها ، وهبط السلم . مر أمام الشقة المفتوحة لا يلوى على شيء ، ثم غادر الشقة رجلا أو ثلاثة فزلوا وراءه فنباطا حتى أدر كوه ثم فاتوه فهبط وراءهم حتى الدهليز ، وغادر العمارة كأنه واحد منهم وقد لمح البواب جالسا في حجرته الصغيرة وراء الباب . في الطريق شهق بعمق ثم زفر . هل عرفه أحد ؟ . هل رأى أحد القضيبي في يده ؟ . هل لوث الدم بدله ؟ . ورأى تاكسي عند الطوار المقابل ولكنه تخاف إن عبر الطريق مباشرة أن يراه أحد من الفندق ، فتوغل في الشارع ، ثم عبر من بعيد إلى الجانب الآخر فرجع تحت البواكي صوب موقف التاكس . وصادف رجوعه قيام الشحاذ وسيره نحوه متلمسا طريقه بعصاه ، اضطرب أن يقف على بعد مترين من التاكس حتى يمر الرجل فرآه لأول مرة بوضوح على ضوء مصباح . وشد ما أثار اشمعزازه لحد الغثيان . وجه نحيل ضائع اللون والمعال في لحية متلبدة بالقذارة ، وعظام بارزة



اقترب من الفراش خطوة رافعا القضيب إلى أقصى ذراعه

ووجنتان غائرتان وأنف مجدوع ، ورأس مغطى ببطاقيّة سوداء يحجب مقدمها حاجبيه ، تدمع تحتها عينان دمويتان مشدودتان إلى أسفل ، فمن أين جاءه الصوت اللطيف الذى يغنى بالمدح ؟. كتم أنفاسه كيلا يشم رائحته وهو يمضى أمامه ، وتقلص وجهه فى تقزز ونفور حتى اختفى عن ناظره ، ثم اندفع نحو التاكسى آمرا السائق بالذهاب إلى ناحية من النيل بها مرسى قوارب ، أى إنسان يعطف على هذا الشحاذ ١. ولكن هل لمحّه أحد وهو يغادر العمارة ؟. القفاز والفضيب هل رآهما أحد ؟. وسائق التاكس هل ينقلب شاهد إثبات غدا ؟. التاكس لا يريد أن ينطلق . السائق يزعجه بتعليقات غير مفهومة .

— أليس كذلك ؟

— هه ١.

— وبدل الجنون أقول لنفسى الصبر طيب .

ليس أفضل من السكوت إلا الجنون . وشاطئ النيل راقد فى ظلام فمن يرى القضيبيّ أو القفاز أو الدم ؟. والتجديف فى هذه الساعة من السنة غريب ولكنه سلوك عادى جدا إذا قيس بغيره . الآن تتخلص من القضيبيّ والقفاز وتغسل يديك . اغسلهما جيدا فى الأمواج الثقيلة النابعة من الليل . وبمجرد التفكير فى الراحة زحف الإعياء كالنوم . وترك القارب للتيار . ليس فوق البر من شيء يهم ، وثمة لذة غريبة فى إغماض العين والاستسلام للتيار . وفى نحو التفكير والذاكرة . ولكن التقاء العينين تحت المصباح السهارى لا ينسى . والصوت الذى انبعث ما كنهه ؟. وما يسيل من عين الشحاذ دم أم دمع ؟. حتى المطاردة الآن لا تهّم . ولكن أين مضى بك التيار ؟.

وفجأة انطبقت السماء على الأرض . وثب من الفرع فتمايل به القارب . وفى اللحظة التالية أدرك أنها صفارة قاطرة بحرية انفجرت بغلظها المحطم لأركان الجو . وتتابع أمواج قوية فرقص القارب . وتناول المجذافين وجدف بقوة راجعا إلى المرسى . ولم ير فى السماء نجما واحدا فتذكر الشتاء وسرعان ما سرت

في جسده قشعريرة البرد . ومشى في الجزيرة بسرعة وقوة دفعا لبرودة الجو حتى عبر جسر النيل . وعند إشارة المرور لمح سيارة كبيرة واقفة ، ورأى داخلها رجلا جذب انتباهه من النظرة الأولى . كهل فخم ، ولكن هذا الوجه كم أنه محتمل أن ...!. وانفتح الطريق وتحركت السيارة فصاح بأعلى صوته :

— سيد الرحيمى !

وجرى وراء السيارة بأقصى سرعته ولكن المسافة الفاصلة بينهما اتسعت إلى غير نهاية وسرعان ما اختفت السيارة . حتى رقمها لم يره . توقف عن الجرى وهو يلهث . هو الرحيمى !. صاحب الصورة بعد ثلاثين عاما . ولو تقدم خطوات أسرع لأمكنه الوثوب على مؤخرة السيارة . ولكنه لم يعرف الرقم ولا الماركة . والحسرة غير مجدية وهى فى حالته مضحكة أيضا . وكيف يثق فى عينيه وهو لم يشعر بالبرد فوق سطح النيل !. وماذا يعنى الرحيمى له بعد ما كان ؟ الأمل الوحيد الباقي له هو : كريمة . هى الآن سهرانة تفكر . وتربطهما حقيقة واحدة رغم البعد . ومع ذلك كم يحسن إلى لقاء إلهام ليعترف لها بكل شيء . وأنباته ساعة الميدان بانتصاف الليل فقرر العودة إلى الفندق فى ميعاده المألوف رغم كراهيته للفكرة . ارتعد وهو يمر أمام العمارة . وتذكر الشحاذ بصورته البشعة فتساءل عن المأوى الذى يؤويه . ووجد عم محمد الساوى جالسا مكان عم خليل لم يذهب بعد للنوم . وتذكر أنه لم يأكل ولم يشرب وأنه كان ينبغي أن يشرب قليلا من الكونياك . ورفض فكرة الرجوع خشية ألا يحسن تفسيرها غدا !.

وقال له العجوز :

— التعب واضح فى وجهك !.

فأجاب بحذر :

— الدنيا برد فى الخارج ..

فابتسم الرجل قائلا :

— سألت عنك مرة أخرى .

— ١٠٦ —

— من !؟ .

— أنت أدرى !؟ .

إلهام !.. خرافة كالرحيمي .

— ليس وراء بلدكم إلا التعب .

— الحياة كلها تعب ، ولكن أما من جديد ؟

أدرك أنه يسأل عن الرحيمي فقال وهو يمضي محييا :

— سأبحث عنه غدا في القرافة !.

غادر الفراش في السادسة صباحا . ترى هل ذقت النوم عيناه ؟ . إنه لا يذكر من ليله إلا السهاد . ولكن مهلا لقد حلم .

أجل لا يذكر من الحلم سوى منظر عراك نشب بينه وبين كريمة أمام عم خليل الذى لم يكثرث لما يجرى أمامه ، ولكن ذلك دليل كاف على أنه نام ولو بعض الوقت . والجو بارد حقا ولكن فلتكن رجلا إلى النهاية وإلا فما معنى مباهاتك بأنك مجرم من سلالة مجرمين ! .

وأضاء المصباح فهاله أن يرى فردة القفاز في يمينه ! . حلق فيها بذهول وفزع . إذن رمى بالقضيب والفردة اليسرى ونسى هذه ! . عاد بها إلى شاطئ النيل . وسار في الجزيرة ، وجرى وراء السيارة الكبيرة ، وقطع الشارع ، ولوح بها للساوى وهو يحدثه . حلق فيها بفزع متزايد . بقعة من الدم انداحت وسط راحتها البنية . ماذا فعلت هذه البقعة ! . عليك أن تختبر كل شيء ، وتفحص الفراش والغطاء والملاءة ، وأرض الغرفة ، ثم الحذاء والجوارب والبدلة والقميص والمنديل ، كل شيء بعناية ، ولكنه لم يطمئن لشيء ، ودار رأسه بالوساوس فعيناه لا تريان شيئا أما أعين شياطين الأمن فلن يخفى عليها شيء ، وقرر أن يتخلص من القفاز فمضى به — مع الفوطة والصابونة — إلى الحمام ، مخفيا في جيب البيجاما مقصه الصغير ، وراح يقطعه ، ويرمى بكل قطعة على حدة ثم يشد السيْفون . وهو يفعل ذلك سقط منه مرة على الأرض ، فالتقطه وواصل عمله ، ثم غسل وجهه وغادر الحمام ، وفي الطريقة رأى على سرياقوس أمامه فحياه الرجل قائلا :

— صباح الخير يا سى صابر ، استيقظت اليوم مبكرا .

اللعنة ! . ماذا جاء بك إلى طريقى ! . ساكن الحجر رقم ١٣ استيقظ مبكرا

على غير عادته ، هذا الشيء الوحيد غير العادى يا حضرة الضابط . اللعنة .
بادرة سوء ولا شك . وهل غسل الأرض عند موضع سقوط القفاز ؟. اللعين
دخل الحمام !. ولما دخلت الحمام عقب خروجه منه رأيت أثرا يشبه الدم عند
البالوعة . ولم يدخل حجرته ولم تفارق عيناه باب الحمام . وفتح الباب وخرج
على سريقوس فلما رآه بموقفه سأله :

— أى خدمة يا سى صابر ؟

فذهب إلى الحمام دون أن يلتفت إليه ، وتفحص موضع سقوط القفاز جيدا
ثم غادره ، ولما رأى على سريقوس فى الخارج قال كالمعتذر :

— نسيت الصابونة !.

فابتسم الرجل قائلا :

— كانت يسراك وأنت ذاهب !

هذه هى عاقبة الاستيقاظ مبكرا قبل أن يشبع الواحد من النوم ، زياط ملعون
أيقظنى بعد الفجر وعشنا حاولت النوم من جديد ..

ودخل الحجرة وهو يستأنف ضحكته . بداية سيئة ولكن لا داعى للمبالغة
فى الخوف . وأعاد تفحص ملابسه وهو يرتديها ، ورفع رأسه نحو السقف
متخيلا صورة عم خليل فوق فراشه . وقال لنفسه — رغم قشعريرة تقلص بها
جسده — إن حوادث القتل تقع فى كل يوم وبلا حصر ، ومجرد التفكير فى السفر
إلى الإسكندرية جنون . ولما انتهى من ارتداء بدلته نظر فيما حوله متسائلا ترى
هل نسى شيئا ؟. إنه غير مطمئن إلى بدلته رغم إعادة الفحص وسوف يكتشف
الشياطين فى نسيجها ما لا يخطر ببال . وخطر له أن يرتدى أخرى ويذهب بها إلى
مصبغة لغسلها بالبخار ، ولكن فيم يلفها ؟، وألا يلفت ذلك بعض الأنظار ؟،
ألا تصير موقع تحقيق بعد ظهر اليوم ؟. وشعر بضيق ويأس وبخاصة لأنه رسم أن
يغادر الفندق قبل اكتشاف الجريمة . ورأى أن ذلك أهم من البدلة نفسها .
وألقى نظرة أخرى على الحجرة وهو يقول لها « لا تخونينى » ثم ذهب . رأى عم

محمد الساوى وهو يصلى الصبح فجلس فى الاستراحة . مع نفر قليل من
النزلاء . وتناول فطورا خفيفا ، وفى أثناء ذلك جاءه على سرياقوس مسرعا وهو
يقول :

— نسيت هذه يا سى صابر .

حافضة نقوده !. سقطت بلا شك وهو يتفحص الجاكتة ، وراجع محتوياتها
ثم قال له :

— أشكرك جدا يا عم على ..

ونفحه بعشرة قروش فقال الرجل وهو يمضى عنه :

— وجدتها عند رجل السرير .

الأخطاء التى اكتشفت كثيرة حقا فما عدد الأخطاء التى لم تكتشف ؟ .
والقوة العمياء التى تجردك من ملابسك قطعة وراء قطعة سترمى بك فى النهاية
عاريا كما ولدتك أمك . وأملك هى القاتل الحقيقى لعم خليل أبو النجا ، وما أتبه
شخيرها بشخيرة فى الليلة الأخيرة أما الصوت الذى ند عنه عقب الضربة القاتلة
فقد مضى وانقضى . وضبط رجلا من الجالسين وهو يدارى ابتسامة ابتسمها
لدى ملاحظته فأدرك أن شفثيه تفحصان أفكاره فأربكه الحرج . وكره المكان
فغادره . وفى الخارج ترمى إليه الغناء المألوف كل يوم « طه زينة مديحى » فتذكر
الصورة البشعة بتقزز ثم قال وهو يتجنب النظر ناحيته « من يدرى لعله سعيد
بالغناء » . ويصعد عم محمد الساوى إلى السطح ويفتح باب الشقة ثم يطرق باب
حجرة النوم .. عم خليل استيقظ ؟ .. استيقظ يا عم خليل .. ويدفع الباب
برفق ويختلس من الداخل نظرة .. عم خليل ربه .. يا أطفاف الله .
أغيثونا .. يا على .. يا على .. يا هو .. عم خليل قتل .. أغيثونا .. بوليس
النجدة . قديما اختفت أسمى فلم يعثر عليها أبى واختفى أبى فلم أعثر عليه . فليكن
هذا الاختفاء الموفق نصيبى أيضا ، وإذا انجابت الغمة وطردها النسيان فتلق
كريمة بين ذراعيك ومعها كل ما تعد به الحياة السعيدة المطمئنة . سار على غير

هدى تقوده الشوارع والمنعطفات . وكلما أجهده السير جلس على قهوة ليريح قدميه . لم يرو ولم يسمع شيئا . ومرة ارتفع رأسه إلى الأفق فوق مبنى القضاء العالى فرأى مظلة كبيرة من السحب ذات أرضية بيضاء صافية تنتشر عليها قطعان من السحاب الداكنة فاستيقظ قائلا : « هذه زفرة من الإسكندرية » وتحرك في القلب الشجن ، ثم مضى بالعين التي لا ترى والأذن التي لا تسمع .. وطيلة الوقت وهو يشعر بحاجة حارة إلى لقاء إلهام ، فلما فات النهار منتصفه مضى إلى فتركون وهو ينظر إلى كل شيء بغرابة . ولدى رؤية الفتاة مقبلة فاضت به رغبة مفاجئة في الاعتراف . ولما رآته ومضت عينها ثم صافحته وهى ترميه بنظرة زرقاء عاتبة :

— لماذا أضافحك ما دمت تقاطعنى ؟

وتفحصته باهتمام ثم استدركت :

— وأيضاً لا تتكلم !

— استغفرتنى المشاغل وكنت وما زلت فى غاية التعب .

— ولا تليفون ؟

— ولا تليفون ، فلنؤجل حديث ذلك لأشبع شوقى إليك .

وارتضيا الصمت وهما يتناولان الغداء ولكنه ظل يرنو إليها طيلة الوقت .

ردد باطنه « طه زينة مديحى — صاحب الوجه المليح » وقال إن تصميمه على هذا

اللقاء عجيب . وهو يبدو لا معنى له إلا أن يكون ملجأ مؤقتا فى العاصفة . وهى

تبتسم رغم أنها صافحت يدا ملوثة بالدم . ورهبة الوداع تغرى بالدمع .

— أنت مبتعب حقا .

فقال يفتور :

— أمس رأيتَه !

فلمعت عينها باهتمام شديد مدركة من يعنيه :

— أخوك ؟!

— ١١١ —

- سيد سيد الرحيمى .
- إذن قد انتهت مهمتك ؟
- فقص عليها الحكاية فيما يشبه الضجر . فقالت :
- هناك احتمال كبير أن يكون هو .
- وثمة احتمال أن يكون غيره .
- فتساءلت برجاء :
- متى تعتبر هذه المسألة منتهية ؟
- إني أعتبرها كذلك .
- لكنك متعب حقا ؟
- مضت الأيام الأخيرة فى مقابلات متواصلة ومشاور معقدة .
- أناس من طرف والدك ؟
- نعم .
- وشربا العصير ، ثم تهيأت لنغمة جديدة مهدت لها بابتسامة حية ثم تساءلت :
- ولا تجد وقتا للتفكير فى .
- بل أفكر فيك طول الوقت .
- ماذا قال لك التفكير ؟
- متى تعترف لها بكل شيء وتعفى نفسك من الكذب ؟
- أنت لا تتكلم ، تحدثنا آخر مرة عن عمل جديد فى القاهرة !
- آه .. أنت لا تفكر إلا فى الاعتراف وعما قليل ستنفجر .
- أجل ، لم أنس ذلك لحظة واحدة .
- رغم مشاغلك ؟
- رغم مشاغلى كلها .
- أما أنا فأدرس الموضوع من جميع نواحيه .

— ١١٢ —

- إنها آخر حصن للمقاومة فقال :
- إلهام أنا أحبك ، أحبك من كل قلبي ، ولكنى كذبت عليك .
- رمقته بدهشة وهى تسأل :
- متى وكيف كذبت ؟
- كذبت عليك بدافع حبي نفسه .
- لا أفهم شيئا .
- قلت لك إني أبحث عن أخى والحقيقة أنى أبحث عن أبى ؟
- أبرك !
- أجل ، أبى هو الذى أبحث عنه .
- كيف فقدته ؟ .. أهى حكاية كحكايتى ؟
- كلا ، صدقت طول عمرى أنه ميت ، وفى الساعة الأخيرة من حياة أمى اعترفت لى بأنه حى ، وأن على أن أجده .
- وهى تحديق فى وجهه طول الوقت :
- على أى حال ليس الأمر بذى بال .
- لكنى رجل مفلس لا أملك إلا جنيتها ، كانت أمى غنية جدا وكنت أعيش غيشة الوجهاء ، ثم ضاعت ثروة أمى لآخر ملهم ، لم تترك لى سوى وثيقة زواجها وصورة أبى لأثبت بها بنوتى أمامه عندما أجده ، وعدا ذلك فإننى لا أصلح لشيء .
- أنقل الوجوم عينيها الصافيتين . كيف كانت تكون حالها لو اعترف لها بسيرة أمه وماضيه على حقيقتهما ؟!
- أقرأ الانزعاج فى وجهك !
- كلا ولكنها المفاجأة .
- أنا غير جدير بك ولن أغفر لنفسى خداعك .
- تمت :



وشربا العصور ، ثم تهبأت لنعمة جديدة مهدت لها بابتسامة حية

— ١١٤ —

- إنى أفهم جيدا لماذا كذبت على .
- الأفظع من ذلك جعلتك تحبين شخصا غير جدير بحبك .
- وحبك أهو كاذب ؟
- أبدا ، مطلقا ، أحبك من كل قلبى .
- وهى تنهد :
- والحب هو الذى ردك إلى مصارحتى بالحقيقة ؟
- أجل هو ذلك .
- إذن فعذرک واضح !
- ولكنه يطالبنى أيضا بالابتعاد عنك .
- وهى تزدد ريقها :
- لكن بالله لماذا ؟
- مفلس ولا أهل لى ، ولا أصلح لشيء .
- الإفلاس لا يهم فهو حال مؤقتة ، والأهل لا يهتمون فما حاجتنا إليهم ،
- ولكنك تصلح لأشياء كثيرة .
- أشك فى ذلك ، لا شهادة لى ولا علم ولا خيرة ولا عمل ، ولذلك فلا أمل لى إلا فى العثور على أبى .
- وهل يغنى أبوك عن كل شيء ؟
- أفهمتنى أمى أنه من الوجهاء ومن يشغلون المناصب الخطيرة .
- فترددت لحظات ثم قالت :
- لكن الإعلان .. والاسم .. ودليل التليفون .. أعنى ..
- أجل ، لا أصدق الآن أنه من أصحاب المناصب فهم معروفون ، ولا من
- وجهاء القاهرة كذلك ، ولكن ذلك لا ينفى أن يكون من وجهاء هذا الإقليم أو
- ذاك ..
- ثم إنك لمحتة أمس ؟

— ١١٥ —

- ذلك ما خيل إلى ، ولكنى لم أعد أثق بشيء .
— وحتى متى تنتظر ؟
— يجب ألا أضيع وقتى فى البحث أو الانتظار .
— ثم ؟
— لا أدرى ، السبل مسدودة فى وجهى ، ولكن على أن أرجع إلى بلدى
فأبحث عن أى عمل أو أنتحر ..
وهى تعض على شفيتها :
— وتقول إنك تحبنى !
— نعم .. بكل قلبى .
— وتفكر فى الذهاب أو الانتحار ؟
— السبل مسدودة لحد الاختناق .
— لكنك تحبنى .. وأنا أيضا أحبك .
قال بوجه متقلص من الانفعال والحزن :
— أنا لا أصلح لشيء فكيف أصلح لك ؟
— الصبر ، لن أتخلى عنك .
— لكن ما الفائدة ، كنت أحلم بالعثور على أبى ولذلك أدخلتك فى حلمى
بلا حساب .
— العمل !، هو الذى يحل مشكلتنا .
— قلت إننى لا أصلح لشيء .
— أعطنى فرصة للتفكير وسوف تسير الأمور كما نود .
والجريمة التى ارتكبت !، لا يجوز بحال أن تسير الأمور كما نود ، يجب أن
يكون وقت ذلك قد فات . كيف لم يأت الاعتراف بالنتيجة المدمرة !.
والضحك من الآن إلى نهاية العمر لن يكفى .
— لن تسير الأمور كما نود .

— ١١٦ —

فقلت بحزم :

— أمهلنى يوما أو يومين ، لاتتخذ أى قرار قبل الرجوع إلى ، أنا أعرف ما أريد ..

قل لها ماذا كانت أملك . قل لها ماذا فعلت أمس . قل لها إنك تزوجت من أخرى بوثيقة من دم . قل لها إنك تود أن تصرخ حتى تصدع أركان الأرض .

ها هم عساكر البوليس وها هي اللمة . كما تخيل تماما طيلة النهار . وإذن فقد انتهى الرجل واكتشفت الجريمة والبحث دائر عن المجرم ، ولا مفر من التقدم فأسكت هذه الرعدة وتمالك نفسك حتى الموت . لتس النظر الغائبة التي ألقاها عليك الرجل ، إلى الأبد . ولا تسل عن الصوت الذي ند عنه . والعودة إلى الفندق شاقة مرعبة كالاقرار . حتى الخطة التي نفذت نوقشت من جديد كأن لم تنفذ بعد . كان يجب أن تغادر الفندق قبل يوم الجريمة بأسبوع . لم يكن الشيطان نفسه ليفكر فيك ولكنك لن تجني من الهلوسة إلا الحشرات . ومن يصدق أنه حتى في غمرة هذا الفزع الشامل لا يكف صوت الشحاذ عن المديح ! . وشق طريقه خلال المتطلعين حتى اعترضه عسكري فقال بدهشة :

— ماذا حدث ؟ ، أنا من نزلاء الفندق .

وظهر عم محمد الساوي على عتبة الفندق بوجه شاحب استقرت في صفحته صورة دميعة للفزع فأشار إليه قائلا بصوت لا يكاد يسمع :

— دعه يدخل .

سأله بلهفة :

— ماذا حدث يا عم محمد ؟

فأجاب الرجل ووجهه يتقلص تقلص البكاء :

— قتل عم خليل !

— قتل !

— وجد مقتولا في فراشة لعنه الله على المجرمين .

رأى في المدخل عساكر ومخبرين ، وفي مكان عم خليل جلس المحقق وإلى يمينه

— على كرسي كريمة المعتاد — رجل آخر . وكان شاغل كرسي عم خليل عاكفا

على أوراق بين يديه وقد جلس وراء المكتب من الناحية الأخرى أحد النزلاء .
وذكره الجالس مكان عم خليل بصورة أبيه المتخيلة . وأوشك اتهام مفاجيء أن
ينتزعه من دوامة الاضطراب التي اجتاحتها ولكنه ما لبث أن تبين شباب الرجل
النسبي واختلافه عن الصورة عند التحقق فوضح له سخط مخيلته . هل يقف أو
يمضي إلى حجرته ؟. وبعد تردد قصير شرع في السير إلى الأمام ولكن الجالس
مكان كريمة أوقفه بإشارة من يده قائلاً :

— انتظر من فضلك في الاستراحة .

ذهب إلى الركن الأيمن حيث جلس بعض النزلاء فجلس معهم وهو يسأل :

— ماذا حدث ؟

— وجد عم خليل مقتولا .

— ولكن كيف ؟

— من يدري !، وجاء المحققون ، وحجزنا جميعا للتحقيق ، وحصلت
المعاينة كما حصل تفتيش شامل .

وارتفع صوت بكاء مكتوم جذب عينيه إلى ركن الاستراحة الأيسر فرأى
كريمة !. رآها جالسة بين امرأة عجوز في السبعين ورجل يكبرها بأعوام . كيف
لم ينظر صوبها وهو داخل ؟. وماذا يجدر به أن يفعل ؟. وبعد تردد نهض إليها ثم
قال بصوت خافت :

— شدى حيلك ، البقية في حياتك .

لم تنبس بكلمة وظلت مخفية وجهها بين يديها فرجع إلى مجلسه وهو يهز رأسه
أسفا . ترى هل أخطأ أو أصاب بهذه الحركة ؟. وهل يمكن أن تشبه المرأة
العجوز أم بنت الأنفوشي ؟. وماذا يدور في أذهان المحققين ؟. هل سألوا عن
ساكن الحجر رقم ١٢ ؟. هل بدأت التحريات عنه ؟. هل يفهمون المجرمين كما يفهم
هو بنات الليل ؟. وكرههم جميعا لدرجة الموت . ونظر إلى الجالسين متسائلا :

— وبعد ؟



وارتفع صوت بكاء مكتوم جذب عينيه
إلى ركن الاستراحة الأيسر فرأى كريمة !

— ١٢٠ —

- أنت لم تنتظر إلا دقائق ونحن على هذا الحال منذ الصباح .
 — هل سألوا النزلاء الآخرين ؟
 — نعم ، وتركوهم يذهبون ، ولم يأت دورنا بعد ، وسألوا الزوجة وأمها
 وخالها .
 — لكنها لم تكن موجودة فيما أعلم ..
 وندم على تسرعه ، ولكن رجلاً قال :
 — ولو ! ، وحصلت مفاجآت ففي الحجرة رقم ٦ ضبطت كمية ضخمة
 من المخدرات فقبض على صاحبها ، وفي الحجرة رقم ٢ عثروا على لص محترف ..
 — آه .. لعله ..
 — هذا جائز ، كل شيء يتوقف على سبب الجريمة .
 — لا شك أنه السرقة ..
 وندم على تسرعه مرة أخرى ، يحسن به أن يتجنب الأخطاء . هل وجدوا
 دليلاً أو شبه دليل في حجرة عم خليل أو في حجرته ؟
 لا يبدو أن أحدا منهم يهتم به . وكم يود أن يخلو ولو دقائق إلى كريمة . احذر أن
 تنظر نحوها . لديها بلا شك ما يستحق أن تخبره به . ليس الأمر كما تخيل . أجل
 ليس الأمر كما تخيل . اللعنة .. متى يخرس الشحاذ البشع ؟ . في مثل هذا الوقت
 من كل شهر أذهب لزيارة أمي . سرقت نقود وحلي . أغلق على سرياقوس
 النوافذ أمام عيني ثم أغلقت الشقة بنفسى .. لا .. لا أعرف له أعداء . لماذا
 ذكرني هذا الرجل بصورة أبي ؟
 وإذا برجل يقول :
 — ومع ذلك فنحن أبرياء فكيف يكون اضطراب المذنبين !
 — وأكثر من هذا فمجرد خطأ في التعبير قد يجلب متاعب لا حد لها .
 — ولكن لم يشنق برىء قط .
 — أووووه ..

ولكن قد ينجو مذنب . أمك والرجل الهارب إلى ليبيا . والعودة إلى الفندق محض جنون فخطئة أخرى هي ما كان يلزمك . وكالقضاء اعترضت مسعاك الخائب كريمة . وحاجتك إلى أليك لم تنقض كما توهمت ولكن الخطر يزيدا إلخا .

واستدعوا تباعا . وأخيرا وجد نفسه جالسا أمام المحقق .
كرهه من أعماقه ثم صمم على الانتصار عليه .
— صابر سيد سيد الرحيمي .

وقدم بطاقته فتصفحها الرجل بعناية :
— نزلت في هذا الفندق منذ شهر تقريبا وهو مسجل في الدفتر .
كلا ، لا يشبه الأب في شيء وإن يكن ذكره به عند النظرة الأولى .
— استيقظت كالعادة فارتديت ملابسى ونزلت إلى الاستراحة ثم تناولت الفطور وذهبت .

— ليس كالعادة تماما ، استيقظت مبكرا .
— لا أستيقظ عادة في وقت محدد ، وقد استيقظت مبكرا أكثر من مرة .
— قال الخادم إنك استيقظت هذا الصباح مبكرا بخلاف عادتك .
— لعله لم يرني في المرات السابقة .
— ألم تسمع شيئا غير مألوف في الليل ؟
— كلا ، نمت عقب عودتي فلم أستيقظ إلا في الصباح .
— ألم يلفت نظرك شيء عقب استيقاظك ؟
— كلا .

— متى رأيت الخادم على سرياقوس ؟
— عند خروجي من الحمام مباشرة .
— ألم تلاحظ عليه شيئا ؟
— كلا ، كان كعادته كل يوم .

— ١٢٢ —

- وأنت ألم يحدث لك ما يستحق الذكر ؟
- كلا
- ألم تنس حافظة نقودك ؟
- بلى ، حدث هذا حقا ، وأتاني بها على سرياقوس فى الاستراحة
- وكيف كان وقع ذلك فى نفسك ؟
- سررت بطبيعة الحال .
- وماذا أيضا ؟
- لا شيء .
- ألم تدهشك أمانته ؟
- ربما ، لا أدرى بالضبط ، ولعل لم أفكر فى ذلك .
- من الطبيعى جدا أن تفكر فى ذلك .
- لعل دهشت بعض الشيء .
- بعض الشيء ؟
- أعنى دهشة عادية .
- ما رأيك فى مدى أمانته ؟
- لم ألاحظ عليه ما يسوء .
- وأين أمضيت الوقت فيما بين ذهابك وإيابك ؟
- أتجول هنا وهناك كيفما اتفق .
- بلا عمل وهذا مفهوم من البطاقة . ولكن بلا أصدقاء ؟
- لا أصدقاء لى هنا .
- وأمس متى غادرت الفندق ؟
- حوالى العاشرة صباحا .
- ومتى رجعت إليه ؟
- عند منتصف الليل .

— ١٢٣ —

- لم ترجع في أثناء النهار كما فعلت اليوم ؟
— كلا .
- وهل سبق لك أن فعلت ذلك ؟
كيف خرقت مألوف سلوكك أمس خلافا للخطة ؟
— مرة أو مرتين ؟
— لا يتذكر أحد هنا ذلك .
- ولكنني أتذكره !
— مرة أو مرتان ؟
— الأرجح مرتان !
- وكيف تقضى هذا اليوم عادة ؟
— في التجول وأنا رجل غريب وكل مكان في المدينة بالنسبة إلى جديد .
— وماذا وجدت عند عودتك ؟
— قابلت عم محمد الساوى في هذا المكان ، وعلى سريقوس أمام باب حجرى .
- كيف وجدته ؟
— سألتني إن كنت في حاجة إلى خدمة ثم ذهب .
— ألم يصادفك أحد من النزلاء ؟
— كلا .
- وكيف أمضيت أمس من الساعة العاشرة صباحا حتى منتصف الليل ؟
— تجولت في الشوارع حتى موعد الغداء .
— وأين تناولت الغداء ؟
— في بقالة الحرية بكلوت بك .
- مكان غريب بعض الشيء لرجل من الأعيان .
طفح بالكراهية للرجل وهو يقول :

— ١٢٤ —

- اهتديت إليه أول عهدى بالمدينة وأنا أنخبط فأنست إليه .
- وبعد ذلك ؟
- مشيت على شاطئ النيل .
- فى هذا الجو ؟
- وهو يضحك :
- أنا اسكندرانى .
- ثم ؟
- فتركوان .. لا ، حتى لا يجرح إهام ، وفيلم مترو رأيته فى الإسكندرية .
- دخلت سينا مترو .
- متى ؟
- من الساعة السادسة .
- أى فيلم ؟
- فوق السحاب .
- وبعد التاسعة ؟
- تجولت كالعادة .. وركبت بص مصر الجديدة إلى نهاية الخط لمجرد قتل الوقت .
- قتل !.. لماذا اخترت هذه الكلمة المرعدة !
- وأين تناولت العشاء ؟
- آه .. حذار ..
- فى سينا مترو تناولت شطائر وحلوى .
- ألم تقابل أحدا ؟
- كلا .
- لم تعرف أحدا فى القاهرة ؟
- كلا .

— ١٢٥ —

- ثم بعد لحظة تردد :
- اتصلت بمدير الإعلانات بجريدة أبو الهول لعمل لكنها ليست علاقة معرفة بالمعنى المفهوم .
- أخطأت ؟ .. هل يقحم ذلك إلهام ؟ ..
- لماذا انتقلت من الإسكندرية إلى القاهرة ؟
- زيارة سائح ..
- لعل هذا الفندق غير جدير بإقامة سائح من الأعيان ؟
- هو جدير بالناحية الاقتصادية .
- يبدو أنك لست من الأغنياء !
- بلى ..
- ولا غاية لك من الزيارة إلا السياحة ؟
- الحلقة تضيق . والكذب غير مجد في هذه النقطة . وأنت لم تفكر في هذه الأسئلة عند وضع الخطة .
- ولدى مهمة خاصة .
- أمن الممكن أن آخذ عنها فكرة ؟
- مهمة عائلية .
- حدثني عن أملاكك ؟
- مجرد نقود ..
- لا عقار ولا أطيان ؟
- مجرد نقود ..
- ومحل إقامتك بالإسكندرية كما هو في البطاقة أم تغير ؟
- آه . تحريات . النبي دانيال . الكنار الليلي . بسيمة عمران . سوف تطاردك الشبهات بالوراثه .
- كما هو بالبطاقة .

— ١٢٦ —

- وأموالك فى أى بنك ؟
- بنك ؟
- فى أى بنك تودع أموالك ؟
- ليست فى أى بنك ..
- أين تودعها ؟
- فى .. فى جيبى .
- جيبك ١٩ ، ألا تخاف عليها السرقة ؟
- أجباب بياس وحقد مكتوم :
- لم يبق منها إلا القليل ..
- ولكن فى بطاقتك ما يدل على أنك من ذوى الأملاك .
- كنت كذلك ، أعنى قبل إفلاسى ..
- وماذا أعددت لمستقبلك ؟
- لا تتردد طويلا . سأتحداك بالصدق . أو رغم الصدق .
- كنت أبحث عن أبى ، وهذا هو مستقبلى .
- تبحث عن أبىك ؟
- أجل ، انفصلت عنه وأنا فى المهد . ولذلك قصة عائلية لا أهمية لذكرها ، ولما أفلست لم أجد بدا من البحث عنه .
- أليس لك أى فكرة عن مكانه ؟
- كلا ، والإعلان فى الصحف هو آخر ما عمدت إليه من وسائل البحث .
- ولعل ذلك هو السبب الحقيقى فى انتقالك إلى القاهرة ؟
- لعله !
- وحتى متى تكفيك نقودك ؟
- شهر على الأكثر !
- تسمح ؟

- أعطاه المحفظة بوجه يحمار ويحتقن ثم استردها بوجه عابس .
- وإذا نفدت نقودك ؟ .
- شرعت في البحث عن عمل ..
- ما هي مؤهلاتك ؟
- لا مؤهلات !
- أى نوع من العمل ؟
- عمل تجارى .
- هل تظن البحث سهلا ؟
- لى أصدقاء فى الإسكندرية ، ولن أجد صعوبة فى الحصول على عمل .
- أنت مدين للفندق ؟
- كلا ، ولقد دفعت أجرة هذا الأسبوع مقدما .
- وكيف اهتمديت إلى هذا الفندق ؟
- صادفته وأنا أبحث عن فندق رخيص .
- ألم تكن تعرف فيه أحدا من قبل ؟
- كلا ..
- ولكنك عرفت فيه الكثيرين ولا شك ؟
- عم محمد الساوى وعلى سريقوس ..
- وعم خليل .. أعنى المرحوم خليل أبو النجا ؟
- طبعاً ..
- ماذا ترك فى نفسك من أثر ؟
- رجل عجوز جدا وطيب جدا ..
- ومع ذلك فقد وجد من قتله بلا رحمة .
- أمر محزن جدا ..
- أكنت تعرف أين يقيم ؟
- اللعنة والمقت ولكن حذار من الكذب .

— ١٢٨ —

— في شقة فوق السطح فيما أظن ..
— لست متأكدا ؟
— كلا ..
— كيف عرفت ذلك ؟
— على سري قوس أخبرني ..
— أم أنك أنت الذي سألته ؟
— ربما .
— ترى لم سألته ؟
— لا أذكر الآن بالضبط ولكن العادة جرت بيننا بالدردشة كلما جاءني لخدمة ما ..

— ألم توجه إليه أسئلة أخرى ؟
خفق قلبه بعنف ألیم وهو يجيب :
— ربما ، لا أذكر سؤالا على وجه التحديد ، كانت مجردثرثرة .
وشعر بأنه يدفع إلى شر يصعب التخلص من عواقبه ولكن الرجل سأل :
— حتى متى تبقى في القاهرة ؟
— حتى أعثر على أی أو أجد عملا أو تنفذ نقودي .
أشعل الرجل سيجارة في صمت معذب ، وتفكر مليا ، ثم سأله :
— أليس عندك أقوال أخرى قد تفيد التحقيق ؟
— كلا ..

— قد نحتاج إليك فيما بعد فلا تسافر قبل أن نخطرنا ..
— بكل سرور يا فندم ..
لم تكن خطة كاملة . هي خطة بلهاء . ومحاولة الهرب جنون ، وسوف ترصدك عين لا تغمض . وعليك أن تستعيد كل سؤال وكل جواب لتعرف حقيقة مركزك .

مركزك غامض كالموت . غير بعيد أن تكون الآن محور بحث وتحير . وغير بعيد أن تكون الآن هدفا لعين أو أكثر . ولن تدري بما يدور حولك . كعم خليل قبل أن تهوى عليه ضربتك . حذار أن تأتي حركة مريبة واحدة . الفندق خير منك فقد استعاد هدوءه . رائحة الموت طردت كثيرين من نزلائه ولكن غيرهم يجيئون . والاستراحة باردة برود القبر وليس في الجرائد اليوم من جديد وها أنت تقرأ الجريمة كبقية الناس . ها هم يعودون إلى أحاديث القطن والعملية والحرب . والهواء يصفر في الخارج كالغويل والشحاذ يرتفع إنشاده مضجرا سقيما فيا إلحاح الشحاذين !

ولفت سمعه وقع أقدام في مدخل الفندق فرأى عم محمد الساوى واقفا يستقبل كريمة . انتفض باطنه . وجلست المرأة وأمها العجوز أمام الرجل . أ جاءت لتسلم إدارة الفندق . هل تلتقى عيناها الآن أو بعد لحظات ؟ . حضورها رد إليك روحك الهاربة فمتى تغفل عنا العيون . سوف تبلغك رسالة بطريقة ما وليست الرحمة بعيدة . وهى فى السواد أشد إثارة وما أحوجك إلى العزاء الساخن . ويدور بينها وبين الرجل حديث ترى ما أهميته غير الخافية ؟ . وسمع عم محمد الساوى وهو يقول :

— ولا أدري متى يسمح بدخول الشقة ..

تود أن تعرف مقرها ولكن من الجنون أن تتبعها . كيف فاتك أن تسألها عن عنوان أمها وأنتما تضعان الخطوة الكاملة ؟ . يجب أن تفكر فى الاتصال بك تليفونيا . وأن تذكر حاجتك الماسة إلى التقود .

— تليفون يا سى صابر .

آه .. ماذا يريد التليفون . هل يحسن الرحيمى فن السخرية . تناول

— ١٣٠ —

السماعة بيسراه وهو يمد يمينه إلى المرأة قائلاً :

— أكرر العزاء يا هانم .

تلقت يده شاكراً دون أن ترفع إليه عينيه . وجعل ظهره للساوى وعينيه لها طول المحادثة .

— أنا إلهام .

لم لم تكن الرحيمى . ولم كان هذا الفندق بالذات . أجاب :

— أهلاً .

— أنت بخير ؟

— بخير .

— لم تحضر أمس .

— آسف ، بعض التعب .

— فلنؤجل الحساب ولكنك ستحضر اليوم ؟

— ليس اليوم ، عندما أشفى من الزكام .

— لن أضياعك ، أنت تعرف المكان والزمان ، إلى اللقاء .

— إلى اللقاء .

وأغلقت الخط ولكنه أبقي السماعة على أذنه كأنما الحديث ما زال متصلاً .

وظل ينظر إلى كريمة حتى صاد عينيه فقال :

— يجب أن تتصلى بى بأى وسيلة ، بالتليفون على سبيل المثال .

حولت عنه عينيه ولكن خيل إليه أنها فهمت لعبته . قال :

— أريد أن أعرف أشياء كثيرة ، لا شك أنك تدركين موقفى تماماً ، لا بد

من التفاهم بوسيلة ما ، ولا تنسى أن نقودى تنفذ بسرعة ..

رمقته بنظرة سريعة محذرة فقال :

— إنى مدرك تماماً لجميع المصاعب ولكنك لن تعدمى حيلة ذكية .

عاد إلى مجلسه مضطرباً ولكنه ظفر بشيء من الارتياح . وما لبثت كريمة أن

— ١٣١ —

ذهبت متبوعة بأمرها . واقتحمه إحساس غامض بأنها تختفى إلى الأبد . وقال إنه بدونها جريمة بلا هدف . ولبث في الاستراحة على أمل أن تتصل به بالتليفون . ومروقت عقيم . وترك اختفاؤها وراءه جحيما من الرعب ، وخلت الاستراحة من النزلاء فرأى عم محمد ينظر نحوه فتبادلا تحية مجاملة . وسأله الرجل .

— ماذا يقيمك وحدك ؟

— الزكام ، تناولت أسبرينه وسأذهب إذا شعرت بتحسن .
وهو ينتقل انتقل إلى الكرسي التي جلست عليه كريمة من قبل . ترى أين يقبع المخبر ؟ . وقال :

— كم خيب هذا التليفون أملى .

— آه .. الغائب سره معه .

فرنا إليه برثاء قائلا :

— الحق أنك تعرضت لتجربة قاسية .

تقلص وجه العجوز وهو يقول :

— لا أراك الله ما رأيت !

— لا شك ، أنه كان منظرا فظيحا ، أنا لم أر ميتا قط ، حتى جثة أمي

أغمضت عيني وأنا أقرأ عليها الفاتحة ..

— ومع ذلك فالميتة شيء والقتل شيء آخر

— أجل .. القتل .. الدم .. الوحشية ..

— وحشية تستحق اللعنات الأبدية .

— إلى أساءل أى سبب يرر القتل ؟

— نعم ، أى سبب ؟!

— والقاتل .. أى إنسان هو ؟ .

— من كان يصدق أو يتصور ، رأيت قبل ذلك قاتلا .. صبي يقال .. وظلما

ظنته وديعا كالحمام ..

— ١٣٢ —

- عجبت حقا ! .
- ولكن أين المفر ؟ .
- صدقت أين المفر ؟ ، وعما قريب سنسمع بالقبض عليه .
- حدجہ العحوز بنظرة حزينة ثم قال :
- لقد قبض عليه بالفعل .
- من ؟ .
- القاتل .
- القاتل ا ، لم نسمع ولم نقرأ .
- هز رأسه هزة العارف دون أن ينبس :
- ولكن من هو ؟
- على سرياقوس .
- ذلك الأبله ؟
- كصبي البقال ا .
- لذلك لم أراه اليوم ولا مساء أمس ؟
- ليرحمنا الله .
- وهل علمت بذلك زوجة المرحوم ؟
- طبعا ..
- الإنسان لغز .
- ضبطوا عنده نقودا .
- ربما كانت نقوده ؟ .
- لكنه اعترف بالسرقة ، لهم وسائلهم .
- واعترف بالقتل ؟ .
- لا أدري .
- لكنك قلت إنهم قبضوا على القاتل !

— ١٣٣ —

- هو ما قالت كريمة .
- أيعنى هذا أن السرقة كانت الباعث على القتل ؟
- أظن ذلك .
- كان بوسعه أن يسرق دون أن يقتل .
- الراجح أن المرحوم استيقظ فاضطر إلى قتله .
- كان طيبا لدرجة البلاهة .
- الإنسان كما قلت لغز .
- أكثر من لغز .
- أتدرى أن الشحاذ الذى نسمع مديحه النبوى كل ساعة كان فى شبابه فتوة داعرا ؟

- ذلك الرجل !
- ثم فقد كل شىء من قوة ومال وبصر فتسول .
- ولكن على سرياقوس عثر على حافظة نقودى صباح الجريمة فأثنى بها .
- لعله أمكر مما نتصور .
- هل تقع المعجزات بهذه السهولة أو هو بنيان من الأوهام يقوم على لا شىء ؟
- أما كان الأجدر به بعد ذلك أن يهرب ؟
- الهرب اعتراف .
- وكيف يخفى المسروقات فى حجراته ؟
- ربما ضبطت فى بيته .
- تهريبها إلى بيته لا يقل غباء .
- تلك حكمة ربنا .
- عندما قابلنى فى الصباح قبل اكتشاف الجريمة كان هادئا لطيفا كعادته .
- من الناس من يقتل القليل ثم يمشی فى جنازته .
- الثبات . احذر أن تفضح أطرافك اضطرابك الخفى . قد يوافيك التليفون

— ١٣٤ —

بضوء . وعاد العجوز يقول :

— كنت أول من حقق معه .

— أنت !

— طبعا ، فأنا آخر من كان معه ليلا وأول من دخل شقته صباحا .

— ولكن من يتصور ..

— تلقيت سيلا من الأسئلة . وكنت أغلقت الباب بيدي ، وكانت النوافذ

مغلقة ، ولكن وجدت نافذة مردودة دون إغلاق .

— لعلها نسيت .

— أكدت الزوجة أن جميع النوافذ مغلقة .

— هل كسرها على سريقتوس ؟

— غير معقول فالكسر حقيق بأن يوقظ النزلاء لا المرحوم فحسب .

— لعله طرق الباب ففتح له الرجل .

— ولماذا يفتح النافذة ؟ .. ثم إنه لم يكن يوسع الرجل أن يغادر فراشه ، وقد

قتل وهو نائم عليه .

ونظرة عينيه .. وصوت الصمت .

— ربما تمكن من الاختفاء في الداخل .

— أبدا ، لقد غادر الشقة قبل وأنا من أغلقها

— لعله ..

ماتت بقية الجملة إذ خنقها الرعب . أوشك أن يقول لعله تظاهر بإغلاق

النافذة دون أن يغلقها . مع أن المفروض أنه لا يعلم بأن على هو الذى أغلق

النوافذ . ورغم نجاحه فقد تلج من الرعب وتساءل العجوز :

— لعله ماذا ؟

— لعله فتح الباب بمفتاح آخر .

— ربما ، ولكن لم فتح النافذة ؟

— ١٣٥ —

- الراجع أنها نسيت مفتوحة ..
- الله أعلم .
- كانت محنة لك ولكنك رجل طيب .
- لا أدري كيف تكوني ولكنهم يحسنون عملهم .
- والجرائد سكنت فجأة . لا كلمة اليوم عن الجريمة .
- الله يرحمك يا عم خليل . لقد عرفته منذ ستين عاما .
- وكم يبلغ عمره ؟
- جاوز الثمانين .
- ومتى تزوج ؟
- منذ عشرة أعوام .
- لكنه زواج عجيب ، أليس كذلك ؟
- لقد تزوج في شبابه وأنجب ، ثم ماتت أسرته جميعا ، ولبت أرمل عمرا ،
- حتى تمت مشيئة الله ، وكان يحبها كأب قبل كل شيء .
- هذا هو المعقول .
- كان رجل جد وعمل ، وكان محسنا ، ساعدني في تربية أولادي الله
- رحمه .
- وكيف تزوج منها ؟
- كان يسافر إلى الإسكندرية لبعض الأعمال .
- فقاطعه :
- أهي من الإسكندرية ؟
- كلا ، كان عند كل رحلة يقيم أياما عند صاحب له في طنطا ، وكانت هي
- متزوجة ..
- متزوجة ؟
- من ابن خالتها شاب بلطجي وضع . وقد رآها عند صاحبه آه .. لقد

تكلمت أكثر مما ينبغي .

— ولكن كيف تزوجها ؟

— طلقته من ابن خالها فتزوجها .

— وتزوجت من رجل فوق السبعين !

— لم لا ؟ .. لقد وفر لها الاحترام والطمأنينة .

فقال بذهول :

— والسلام !

وجعل يتذكر كلمات أمه الأخيرة ، ثم تساءل :

— ولكن البلطجي لا يطلق زوجة حسناء فكيف طلقها ابن خالتها ؟

— لكل شيء ثمنه ..

ورمش الرجل كالنادم على تسرعه . فقال صابر :

— ذلك ماض قد مضى ..

— لكنني أتكلم أكثر مما ينبغي ، والحق أنني كثيرا ما أهذى مذكراتي دمه ..

أستغفر الله العظيم ..

ربيبة بلطجي ، جارية سوقية ، وزوجة رجل فان ، مدبرة جريمة رهيبية ،
خالقة لذات جنونية . معذبتك إلى الأبد . وبمجرد وهم لا أساس له ساقطك إلى
فندقها الدامي ، ثم رمى بي إلى برائن هذه الحيرة القاتلة . كالوهم الذي دفعك
تجري وراء سيارة كالجنون .

قهوة مضاعفة لتفريق من الأرق . ونظر إلى التلفون خلال سحب الدخان المتصاعدة من سجائر النزلاء . وتساءل متى تتكلم كريمة . وهطلت السماء في الخارج بغزارة دقائق معدودة ثم أشرقت السماء ولكن الطريق غشاه الوحل . كريمة صامتة كاللوت كأنها لا تدري عذابه . وأنت تشرب أردأ أنواع الأنبذة وتسهد فوق فراشك حتى الفجر ، وتحلم حتى يحيل إليك أن النزلاء يسمعون صراخك ، وإذا تدهورت صحتك فلن يخفى ذلك عن عين الرقيب ، أما كريمة فلا يهمها شيء .

واستأذن في الجلوس إلى ترائيزته — لاذحام الاستراحة — قادم لعله الوحيد الذى بقى من النزلاء الذين عاصروا يوم الجريمة فأذن له وهو كاره يتوجس ثرثرة مزعجة . وصدق توجسه إذ قال الرجل :

— قبضوا على القاتل .

فقال صابر مخفيا انزعاجه بابتسامة :

— سمعت ذلك .

— على سرياقوس ؟

— نعم .

حبك العباءة حول جسده وقال :

— مجرد سرقة لا كما ظننت .

— وماذا ظننت ؟

— الحق أنى الظن بالنساء !

حدجه بنظرة مستطلعة فقال الرجل :

— زوجة جميلة وشابة وسوف ترث تركة لا بأس بها .

— ١٣٨ —

فقال صابر وهو يشد على أعصابه :

— دار برأسى نفس الخاطر .

فضحك الرجل قائلاً :

— بعض الظن إثم .

— ألم يدرك ذلك برأس المحقق ؟. ولكن كريمة صامته كالموت . وهذا التليفون

. لا يحقق رجاء قط . والبرد والمطر والوحل لم تسكت صوت الشحاذ . وناداه

محمد الساوى وهو يشير إلى السماعه فهرع إلى التليفون بتوسل معذب :

— آلو ..

— صابر ؟

لم يتخيل يوماً أن صوتها بهذه الخيبة :

— إلهام .. كيف حالك ؟

— أضيائك ؟

— أبدا ، سترين أنه المرض وسوف أنتظرك اليوم .

إن قطعها بلا تمهيد لفوق الطاقة ولكن ما أيسر أن يجعلها هى القاطعة . يجب أن يعدها عن وحل طريقه ولو بجراحة أليمة . وها هى لا تدرى شيئاً عن أفكاره فتبتسم فى عتاب وتطالعه بصفاء لا يكدره شيء . آه .. كيف يمكن أن يحبها ذلك

الحب العميق الصادق ! . وتصافحا بقوة وهى تقول :

— ألا تشعر بالذنب ؟.

وتوقف عن الكلام وهى تنزع قفازها وتجلس قائلة بقلق :

— شد ما أثر فيك الزكام !.

— بل إنفلونزا خبيثة .

— ولا أحد يعنى بك ؟

— لا أحد ألبتة .

— ألم تستشر طبيباً ؟

- كلا .. وقد شفيت من المرض ولم يبق إلا ظله ..
- يسرنى أن أسمع ذلك ، ستشرب مزيدا من العصير .
- ومضيا يتناولان الطعام وهي تنظر إليه أكثر الوقت .
- فكّرت أكثر من مرة أن أزورك .
- أحمد الله أنك لم تفعلى ..
- هزت منكبيها ولكنها لم تناقشه ثم قالت بابتهاج :
- أما أنا فلم أضيع دقيقة واحدة .
- ستسمعك لحنا جميلا بعد أن أصابك الصمم .
- إنك ملاك .
- ألا تصدقنى ! إذن فاعلم بأنك ستبدأ حياة جديدة ، أو أننا سنبدأ حياة جديدة ، ما رأيك ؟
- طارد فتوره إكراما لها وقال :
- رأى أنك ملاك وأننى حيوان كسيح .
- رأس المال الذى تحتاجه تحت أمرك !
- رأس المال !
- نعم ، هو ما اقتصدته للمستقبل ، وثمن بعض حلى لا أستعملها ، ليس ضيخا ولكنه يكفى ، استشرت زملاء خبيرين ،ؤكد لك أننا سنبدأ فوق أرض ثابتة .
- آه .. ليس لحنا جميلا فحسب . معجزة أيضا . هل كنت تحلم بذلك ! ..
- رأس مال بلا سرقة ولا جريمة . ومعه الحب الحقيقى . إذن رد الحياة إلى عم خليل واستيقظ من الكابوس ! وتأوه بلا صوت :
- إلهام .. كلما غمرتنى بنبلك زاد اقتناعى بأننى غير أهل بك ..
- لا وقت للشعر !
- هى فى غاية السعادة والحماس . وإطفاء شعلتها سيكون جريمتك الثانية .

لكنها تمد يدها لتقطف ثمرة غير موجودة . ولم يجز لك في بال أنه يمكن حل مشكلتك بهذه السهولة . ها هو الحب والحرية والكرامة والسلام فأين أنت ! . ولماذا لم تقع المعجزة قبل الجريمة ؟ .

— فيم تفكر ؟ . توقعت أن تفرح ! .. أن تفرح كثيرا !

لم يبق إلا أن تصدمها بالحقائق لتشفى . قال متهدا :

— قلت لك إنني لست أهلا لنبلك فلم تصدقيني .

— توقعت أن تفرح .

— فات الوقت ..

— يا ربي .. أنت لا تحبني ..

— إلهام .. الأمور معقدة جدا ، أنا أحبيتك من أول نظرة ولكن من أنا ؟

— لا تحدثني عن أهلك ولا فقرك ولا عدم صلاحيتك ..

أنت تعذبتني لأنك تشطرينني شطرين . والوسيلة الوحيدة لشفاك أن أصدمك بالحقائق .

— لعلك ما زلت مريضا ! .. إنك أمامي ولكنني أتساءل أين صابر ؟

— أود ألا تتساءل اليوم وألا تتكدرى ..

— إن كنت مريضا ..

— كلا .. ليس المرض ..

— إذن فما هو ؟ . لماذا قلت فات الوقت ؟

— أقلت ذلك ؟

— منذ ثوان !

— أنا أعنى شيئا واحدا بكل إصرار وهو أنني غير أهل لك .

— أرفض هذا السخف : أنت تعلم أنني أحبك .

— وهذه هي جريمتي ، نحن للأسف لا نفر أمام الحب إلا في الحب فقط .

— ولماذا هي جريمة ؟

— ١٤١ —

— لأنه كان يجب أن أقدم لك نفسى على حقيقتها .
— فعلت ذلك وقبلتك ..
— حدثتك عن أبى ولكننى ..
ثم واصل بمرارة :
— ولكننى لم أحدثك عن أمى !
رمقته بنظرة مستنكرة وهى تقول :
— أنا أحبك أنت ولا دخل للماضى فى ذلك .
— يجب أن تصغى إلى .
— بالله دعها ترقد فى سلام .
— الإسكندرية كلها تعرف ما سأحدثك عنه .
— لنحذف الإسكندرية من خريطتنا .
قال وحلقه يغص بالمرارة :
— لقد ختمت حياتها فى السجن !
حملت فى وجهه كأنما تنظر إلى مجنون فقال :
— أرايت ؟
ثم وهو يزدرد ريقه :
— ولذلك صادرت الحكومة أموالها ، وهذا هو سر فقرى بعد الغنى ، ولم
تترك إلا وهما هلكتا وأنا أبجث عند .
صدمة قاسية يعن لها قلبك ولكنها ستفيق .
— لا يحق لى أن أحب امرأة إلا من النوع الذى كانت تعاشره ! ، كان يجب أن
أتجنبك ولكن سحرنى الحب كما قلت لك .
إنها لا تستطيع أن تتكلم وهذا حسن ، أو لا يبقى أمامك إلا أن تعترف لها بما
هو أدهى .
— هذا ما يعزىنى عن خسارة الفرصة التى تهبها لى ، وقد عشت حياتى

— ١٤٢ —

الماضية عيشة العث بفضل ما لها الحرام ، ولم يكن بينى وبين الاتجار فى الأعراض
إلا خطوة ، ولعله العمل الوحيد الذى يليق بى .
اجتزت أشد العقبات . كأنك سعيد ! . ويا ليت الليل لا يوجد . ولعل
المحقق يعلم الآن بتفاصيل هذه القصة المخزية .
وحنى رأسه لها تحية ثم ذهب .
وفى عصر اليوم التالى دعى إلى التليفون . وشد ما انزعج عندما سمع صوت
إلهام .

— أهلا إلهام !

قالت بصوت متهدج :

— صابر .. أردت .. أريد .. أريد أن أقول إن كل ما قلت لى أمس لا

يهمنى ! .

إلهام .. لست إلا عذابا . أما كريمة فقد جمعت بينكما الجريمة برباط لن
ينفصم حتى الموت ، وحاجتك إليها كالجوع الكافر وإن قذف بك في أعماق
البحر . والوقت يمر مقطرا العذاب ولكن مروره بلا حدث يهب شيئا من
الطمأنينة ، وسوف تجد وسيلة أو أخرى للاتصال بكريمة . وخير ما تفعلان فيما
بعد أن تبعا الفندق ثم تعيشا في مدينة غريبة . وسوف تعيشان عيشة فطرية
تلقائية فهي ليست كإلهام التي تلهبك بصوت التغيير والتعذيب . ولكن متى
تنوى كريمة الاتصال بك ! . وما العمل إذا نفذت النقود الباقية ! . حتى عمل على
سري قوس يقبله إذا أبقى له على الأمل في الاتصال بكريمة يوما ما .. ترى هل يشنق
الرجل ؟ . لقد قتلت رجلا بيدك فما يضريك أن تقتل الآخر بيد غيرك ! . لكن
متى تستيقظ من الكابوس ؟ .

وقبل أن يغادر الفندق صباحا طلبته إلهام بالتليفون وسأته :

— هل ستجدد الإعلان ؟

فأجاب في ضجر :

— كلا ..

فقالت بتودد :

— رجوت شخصا مهما أن يبحث عن الرقم السري للرحيمي إن كان له

رقم سري !

— لم يجد شيئا طبعاً ؟ .

— لا للأسف ..

— لا تشغلي بالك ..

— لنا مراسلون في الأقاليم وهم يقومون الآن بتحريات هامة .

— ١٤٤ —

— لسانى يعجز عن شكرك !

ثم سألت بصوت ينم على الحياء :

— ألا تفكر فى زيارتنا ؟

فقال بحرم :

— كلا ، مراعاة لصالحك قبل كل شىء .

ترى أتبكى أم تغالب البكاء .

— قلت لك لا يهمنى ..

— ولكنه يهمنى جدا ..

انقطع الاتصال بعد ذلك . تألم من جديد حتى حنق عليها من شدة تألمه . ما قيمة الجمال فى هذا العالم الدامى !. ألا تريد عيناها أن تريا إلا هذا الجمال الملعون ؟! وقبل أن يغادر موقفه رأى عم محمد الساوى يتطلع إليه باهتمام فابتسم إليه متوددا فدعاه إلى الجلوس . قبل الدعوة بامتنان خفى . وسأله العجوز :

— مستعجل ؟

— أبدا لا غاية لى وراء الذهاب .

فقال بارتياح :

— إذن فاجلس قليلا ، الحق أنى أشعر بوحشة منذ موت المرحوم . ولا أجد

من أحادثه ..

— وأبناؤك ؟

— لا أحد منهم فى القاهرة ..

— كان الله فى عونك ..

لم يبق فى الاستراحة سوى رجلين ، وفى الخارج غطت أصوات العمال والعربات على مديح الشحاذ .

— أليس هنالك من جديد ؟



الحق أنى أشعر بوحشة منذ موت المرحوم ، ولا أجد من أحادثه

— ١٤٦ —

- لى صديق من الخبرين ولعله يدعى من العلم ما ليس له .
- ماذا قال ؟
- على سريقوس ، لم يجدوا أحدا غيره .
- لعله اعترف .
- لا أدرى .
- أغرته سرقة حقيرة .
- لقد أنكر السرقة .
- ألم يعترف بها من قبل ؟
- بلى ، ثم عاد فأنكرها .
- ولكن النقود ضببت عنده !
- قال إن الزوجة جادت بها عليه .
- خفق قلبه خفقة مؤلمة جدا :
- زوجة المرحوم ؟
- نعم .
- ولكن ، لماذا ؟
- على سبيل الإحسان .
- وهل كانت تحسن إلى الخدم الآخرين ؟
- سئل فى ذلك جميع الخدم ولكن ثبت أنه كان الوحيد .
- وهو يزدرد ريقه :
- هذا غريب .
- الأغرب من ذلك أنه رجع فاعترف بالسرقة .
- والإحسان المزعوم ؟
- قال إنها كانت تجود عليه ببعض النفحات عندما يؤدى لها خدمات فى شقتها ، ثم عرف من وراء ظهرها مكان النقود فسولت له نفسه السرقة .

— ١٤٧ —

- وذهب ليسرق فقتل !
- أظن هذا .
- ورأى المحقق ؟
- من يدري .. ولكنهم مقتنعون فيما يبدو بأنه القاتل .
- وربما يكون قد اعترف .
- ربما .
- لا شك أن الزوجة كانت تبهه قروشا .
- ربما .
- ولكن لماذا أنكروا السرقة ثم عاد فاعترف بها ؟
- من يدري ؟
- هل للمسألة وجه آخر ؟
- آه .. من يقطع بذلك ؟
- اكتشف لأول مرة — وهو ينظر من قريب في وجه العنجز — أن لون عينيه أخضر باهت ، وكلما أمعن فيه النظر خيل إليه أنه يرى صورة جديدة لدرجة أنه تعذر عليه استحضار الأولى .
- أتظن أن للمسألة وجهها آخر ؟
- من أين لي أن أعلم ؟
- آه .. هكذا سيشعر البشر وهم يقتربون من الجحيم في الآخرة .
- أنت تعلم الكثير ولا تقول إلا القليل .
- أخشى أن يكون العكس هو الصحيح .
- ألم يسألوا الزوجة من جديد ؟
- استدعوها للتحقيق أكثر من مرة ..
- ألم يكن لأقوال سريقوس دخل في ذلك ؟
- بلى .

- أثنى بالخبر كل الثقة ؟
— لكنها هي التي قالت لي بنفسها .
— الزوجة !
— نعم ، جاءت مساء أمس .
اختارت الوقت الذي لا يوجد فيه بالفندق . وعندما يدك زلزال الأرض دكا
فماذا يهم التحقيق أو المحقق . وقد يستشف العجوز وراء أسئلتك دافعا أهم من
حب الاستطلاع ولكن كيف تحذر الحر والنيران أن تشتعل في ملابسك ؟ .
— هل تكلمت عن الإحسان إلى سريقوس .
— مجرد إحسان طبعاً .
— هذا هو المعقول .
— لماذا ؟
— على سريقوس غير مقنع كرجل .
— أتحيط علماً بهذه الأسرار ؟
— ليس كل رجل يصلح .
— لكنني عشت أضعاف حياتك .
— لعلك تشك في سلوك المرأة ؟
— لم أقل ذلك .
— أنت إذن واثق من أمانتها ؟
غض العجوز بصره في حزن . وصمت ملياً . ثم قال :
— أنا لا أشك في سلوك المرأة ولكنني متأكد من ذلك !
انظر كيف تتكشف عوالم من الفرع تحت سطح أملس من التراب :
— إذن فهي امرأة آثمة ؟
— نعم ويا للأسف .
— وعرفت ذلك من قل مصرع صديقك ؟

— ١٤٩ —

- نعم ، ولكن راحة باله كانت أهم عندى من الحقيقة .
- ألم تصرح بآرائك فى التحقيق ؟
- طبعا ..
- صرحت بالعلاقة الآئمة التى بينها وبين على سريقوس .
- على سريقوس ! ، أنا لا أفكر فى على سريقوس .
- آه .. هل وقع فى مصيدة !
- كنا نناقش موقفه .
- لكننا تحدثنا بعد ذلك عن المرأة .
- باعتبارها الطرف الآخر ؟
- كلا ، هنالك رجل آخر .
- تعال . الجحيم يتسع لأكثر من رجل !
- رجل آخر ؟
- زوجها السابق .
- وهو يسترد روحه :
- الرجل الذى باعها ؟
- كانت مجرد صفقة لها ما بعدها !
- ولكن كيف عرفت ذلك ؟
- رأيته أكثر من مرة يتسلل إلى بيت أمها وهى هنالك .
- ها هو الجحيم يعود أفتك نيرانا .
- وأخفيت الأمر ؟
- لو أبلغته المرحوم لقتلته .
- وقد قتل رغم ذلك .
- نعم ويا للأسف .
- كيف سمح لها بتلك الزيارات ؟

— ١٥٠ —

- إيفاله في الشيخوخة أنساه كل شيء حتى سوء الظن .
- وقلت ذلك في التحقيق ؟
- قلته .
- حققوا معهما ؟
- ثبت أن الرجل كان خارج القاهرة ليلة الجريمة .
- هذا لا يمنع من أن يكون مدبرها .
- بلى ولكن التحقيق انتهى بإطلاق سراحهما .
- كيف ؟
- عندهم الأسباب .
- لعلهما استغلا الخادم بمكر فائق ؟
- أو أى أحق سواه .
- وهو يزدر ريقه :
- وربما كانت ظنون لا تقوم على أساس .
- ربما .
- لكنك قلت إنك متأكد ..
- مغالاة بعض الشيء في التعبير ..
- عدنا من حيث بدأنا ..
- وهو يهز رأسه في حزن :
- قلبي يحدثني بأن ظنوني صادقة .
- ولعله لا توجد علاقة بين الخيانة وبين الجريمة ؟
- ربما ، وإلا فكيف أطلق سراحهما ؟ ..
- على أى حال فقد أدى على سريقوس لهما خدمة لا تقدر بثمن
- إذا كان هو القاتل .
- ألا تعتقد أنه القاتل ؟

— ١٥١ —

— كل شيء محتمل .

— أحيانا يخيل إلى أنك لا تصدق ذلك ؟ .

— لم لا ؟ .. ألا تذكر حديثي عن صبي البقال ؟

— لعله القاتل إذن ؟

تنهد قائلا :

— أعتقد أن القاتل سيقتل ولو بعد حين .

لن تذوق النوم حتى تحقق معها بنفسك . امرأة جهنمية لكن ما أغباها إذا حسبت أنها يمكن أن تعبت بك . ألم تقتنع بأنك قادر على القتل إذا أردته .! ولكن كيف تعرف عنوانها ؟ . وعاد العجوز يقول :

— زوجها القديم لم يدبر الجريمة وإلا لما أطلق سراحه بتلك السهولة ، أما الجريمة الأخرى ..

— إنه ابن خالتها وليس من الشاذ أن يزور خالته .

— الحق أننى شككت فى الأمر من قديم ، كانت أمها تقيم فى الفجالة غير

بعيدة من هنا ، وكان المرحوم يصطحب زوجته إلى بيتها كلما اشتاقت إلى رؤيتها ، وإذا بالأم تقرر أن تنتقل إلى شارع الساحل رقم ٢٠ بالزيتون ، لماذا ؟ . لم أجد لذلك تعليلا إلا أن تتخذة الزوجة عذرا للإقامة أياما عند أمها كل شهر ، ورغم معارضة المرحوم بادئ الأمر فقد انطلقت عليه الحيلة فسلم بالواقع ..

آه .. لم يتخيل أن يظفر بطلبته بذلك اليسر ، ودون بذل أى مجهود من ناحيته ، لكن الجنون كان يعصف به عصفا . أجل كان الجنون يعصف به عصفا .

لولا يقينه من أن عينا من عيون الأمن تراقبه بطريقة ما لاندفع من فوره إلى الزيتون . لا بد إذن من التريث حتى يجد حيلة جهنمية ، ولما نزل صباحا من حجرته رأى ظهر الساوى وهو منحرف فوق مكتبه فخيّل إليه اللحظة أنه يرى عم خليل أبو النجا . ودهمته الحقيقة الغريبة — وكأنها تدهمه لأول مرة — وهى أنه أزهر روجا . وتساءل ترى هل يمكن أن يتذكره عم خليل بطريقة ما ؟ وتمهل قليلا وهو يصبح على العجز ولكنه رد تحيته بعجوله وعاد إلى دفتر الحساب وكأنه نسى تماما حديث الأمس كله . نسى الأسرار الرهيبة التى كان سيمضى حياته كلها وهو يجهلها . وتناول فطوره فى الاستراحة برأس ثقيل من أثر النوم . كريمة .. لن أسمح لقوة فى الأرض بأن تجعل منى أبله ، ستجديننى قريبا فوق رأسك ضربة قاضية . افعل ما تشائين ، خونى وتزوجى ، فإن حبل المشتقة فى يدي . لا تنهسى أن حياتى أغلى من كبريائى . أما حديث المال والحرب فلا ينقطع فى الاستراحة كإنشاد الشحاذ فى الخارج . ودعته إلهام إلى التليفون . لشد ما يحنق عليها كلمة سمع صوتها فى أعماق دوامته .

— ألا تقابلنى اليوم ولو بعض دقائق ؟

— لا أستطيع .

— اذكر سببا مقنعا .

— لا أستطيع .

— حتى لو كان الأمر يتعلق بأبيك ؟

تساءل بذهول :

— أبى ؟!

— نعم ..

- ولكن كيف ؟
- فلنتقابل اليوم !
- حتى أبوه لا يمكن أن يستحوز على انتباهه في هذه اللحظة النارية الدامية .
- لا أستطيع .
- لكنه أبوك الذى جئت للبحث عنه !
- ربما فيما بعد ..
- هل أجيء إليك ؟
- فقال بضيق لم يخل من حدة :
- كلا ..

أى جديد جد عن الرحيمي ؟. وماذا يهمه الآن ؟. الزيتون هى كل شىء . وربما لم يكن الأمر كله إلا حيلة لاستدراجه إلى اللقاء . الزيتون الآن هى كل شىء . وهام على وجهه معذبا وهو يفكر بلا انقطاع . وشرب كثيرا من النبيذ الردىء ثم تخبط فى الشوارع مواصلا التفكير حتى آمن بأنه سينتصر على المخبر المجهول الذى يتعقبه . ها هو يصعد إلى حجرته لينام ولكنه لن ينام . المخبر هو الذى سينام . وعقب أذان الفجر بقليل غادر الحجرة فى حذر شديد ثم نزل على مهل إلى مدخل الفندق . رأى على ضوء المصباح السهارى بخادما نائما وراء الباب المغلق فشعر بخيبة وغيظ . ولم يفكر فى إيقاظ الخادم ليفتح له إذ لم يستبعد أن يكون هو المخبر . تراجع حائرا وأنفاسه تتردد فى الصمت العميق . وطرأت فكرة لم يدرسها من قبل فبعثت حيويته من جديد فرقى فى السلم حتى السطح بلا توقف ولا تردد . وعندما وقع بصره على الشقة المغلقة تحت ضوء النجوم سرت فى أطرافه رعدة حتى أغمض عينيه من التأثر . واندفع نحو السور الفاصل بين سطح الفندق وسطح العمارة الملاصقة فعبه كالمرءة الأولى . آه .. إنه يرتجف ولكن ما أحوجه إلى قوة أعصابه . ومضى إلى باب السطح ثم نزل فى ظلام دامس حتى مدخل العمارة المضاءة بمصباح سهارى . رأى حجرة البواب مغلقة .

والباب الخارجى مغلقا كذلك والمفتاح فى القفل . كل شىء معد كأنما بتدبير سابق ، دلف من الباب وأدار المفتاح ولكنه لم يطاوعه !. لماذا ؟. وشده بحذر فأخذ يفتتح فأدرك أنه كان مفتوحا ، ولماذا أيضا ؟. أراد أن يخرج ولكن اعترضه شبح رجل سد الفتحة سدا وهو يسأل بصوت جاف :

— من ؟

بسرعة جذبته إلى الداخل مجازفا بحياته ، وفى اللحظة التالية طعنه بركبته فى بطنه فتقوس وهو يئن فهوى على رأسه بقبضته فسقط على وجهه . مرق إلى الخارج يخترق البرد والفجر والخلاء . عبر الطريق إلى بواكى الجانب الآخر ثم اتجه نحو الميدان . ولم يكده يخطو بضع خطوات حتى اصطدم بشبح فكاد يسقطه على ظهره . وقد تأوه قائلا :

— آه .. أنا رجل ضير ..

قال متعجلا :

— لا مؤاخذه . الظلام شديد تحت البواكى ..

— ربنا ينور بصيرتك ، دعوة مستجابة بإذن الله من سائل مسكين .

أقشعر من التقزز . هو الشحاذ دون غيره . حتى فى هذه الساعة من الفجر يسعى ، وواصل سيره وصوت الرجل يلاحقه :

— حسنة لله تنور طريقك .

واستقل تاكسى وهو يتنهد ، سوف ينتظره الخبير طويلا ، وستعمى عيناه من التحديق هنا وهناك وغادر التاكسى فى شارع الساحل على بعد قريب من البيت المكون من دور واحد والظلام ينزع آخر غلالة قبل الشروق . طرق الباب لا يدرى عما سيفتح ولكنه سلم نفسه للمقادير . انفتحت الشراعة عن وجه كريمة !. وبسرعة واضطراب فتحت فدخل .

فى قميص النوم مشعثة الشعر خاملة المفاتن . همست :

— جننت ؟!

— ١٥٥ —

ومالت إلى الحجرة على يمين الداخل معدة للاستقبال . وقفأوجها لوجه تحت ضوء مصباح عار :

— تصرف مخرب ؟ جننت ؟

وهو يثقبها بعينه اللتين لم يغمضا :

— ربما ..

— ألم تفكر في خطورة الزيارة ؟

— هو أهون من الانتظار بلا أمل .

— الانتظار ضرورة ، ألا تدرك أن حالي أدق من حالك !

— وأظل أنتظر حتى الموت ؟

— حتى يصبح الاتصال مأمونا ..

— عندك التليفون .

— صوتي يعرفه عم محمد .

— أى صبي يقال كان يمكن أن ينوب عنك في طلبى .

— حققوا معى أكثر من مرة ، ركبتى الخوف ولم يعد فى رأسى عقل !

— أنت تدبرين جرائم القتل فى أثناء المضاجعة .

— لا ترفع صوتك فأمى نائمة ..

— أليست شريكة لك فى أسرارك ؟

— مجنون !.. حالتك غريبة !

— يجب أن أرى حجرة نومك .

— حجرة كبقية حجرات البيت .

— لا تراوغى ، يجب أن أرى من ينام فيها !

اتسعت عيناها وهى تقول :

— ماذا جرى لعقلك ؟

— ابن خالتك ، زوجك السابق ، أليس هنالك ؟

— من قال ذلك ؟، لا أحد هنالك ، ها هو الخراب يجيء بيدنا لا بيد الآخرين .

— ليكن ، لابد أن أرى بعيني .

أزاحها من أمامه وغادر الحجرة . فتح أول باب فرأى العجوز مستغرقة في النوم . وفتح بابا آخر فرأى حجرة نوم ، حجرة نومها على الأرجح ، وفراشا يفتح غطاؤه عن الثغرة التي انزلت منها . ودار بالحجرات والمرافق فلم يجد أثرا لأحد . رجعا إلى موقعهما بحجرة الاستقبال وهو يقول بحلق :

— شت عقلي ، فالرجل يجب أن يتجنبك في فترة التحقيق .

— قلبي يحدثني بأن مخلوقا لثيما أوقع بيننا .

— ألم يكن ابن خالتك زوجا لك ؟

— كان .

— وباعك للزوج الذي دبرت قتله ؟

— سيقبض علينا اليوم يا مجنون .

— أجيبيني ..

— أنت غبي ، جازفت بحياتي لأني أحبك .

— في هذا المأخور كان يجيء للنوم معك ..

— ألا تفرق بين الصدق والكذب ؟. أنسيت ما كان بيننا ؟

— أى امرأة لا تعجز عن إتقان التمثيل فوق الفراش .

— صدقتني لصالحنا ، كل ما فى رأسك أكاذيب .

— تظنين أن خوفا من المشنقة سيضطرني إلى تركك للرجل .

— لا رجل فى حياتي غيرك ، صدقتني ، إن لم تصدقتني فى الحال سيأخذوننا

قبل شروق الشمس .

— كذابة ، مأكرة ، حطمت حياتي كلها بكذبة قصيرة ..

— صدقتني ، أنا أحبك ، لم أدبر شيئا إلا من أجلك ، صدقتني .



لا تراوغي ، يجب أن أرى من ينام فيها !

— ١٥٨ —

— حطمت حياتى بكذبة لتفوزى أنت وعشيقك بالثروة والحياة .
— صدقتى قبل فوات الأوان ، أنت حبيبى ، ولا أحد غيرك ، خرج الرجل من
حياتى من زمان ..

— دبرت قسمة جهنمية ، فى الجريمة ولك الرجل والثروة .
— لا فائدة ، انتهينا ، اللعنة ، رأسك كالحجر ، كلمة أخيرة ألا تريد أن
تصدقنى ؟

— كلا ..

— إذن ماذا تريد ؟

— أن أقتلك ..

— ثم تشنق ؟

— فى ألف داهية ..

ودوى طرق على الباب كالقنابل . وطوقت البيت أصوات مهددة وأقدام
ثقيلة . صرخت كريمة بيأس :

— جاء البوليس ، ألم أقل لك ؟

انقض عليها كالمجنون ، وقبض على عنقها بيدين عصبيتين ثم ضغط بكل
قواه ، على حين اهتز الجو من زلزلة دفع الباب ..

فى السجن وحدك . لا يزار من ليس له أهل . وإلهام نخطر كالحلم وهى تعرف الآن الحقيقة . شفيت ولا شك من الحب ولعته . وهاهى الجرائد تعيد القصة ، بل ها هى تكشف عما خفى عنك من أسرارها . والصور تملأ الصفحات . كريمة وعم خليل ومحمد رجب زوج كريمة الأول وصورتك والصور الجامعة للأب والأم . حتى إلهام الملائكية ، وبسيسة عمران ، الجرائد لا تترك كبيرة ولا صغيرة . فى سجن الموت تتحرر من علاقات الحياة كلها فلا تهمل الفضائح . أنت متحرر من الكبرياء والخلجل كما كنت وأنت فى الرحم . صابر يقبض عليه متلبسا بقتل عشيقته . صابر له قصة . بسيسة عمران إمبراطورة الليل بالإسكندرية . علته عند اليأس والإفلاس بجاه أب مجهول . البحث عن سيد سيد الرحيمى المزعوم . الحب ، القتل ، صابر مثال فريد للجمال والرجولة . غزواتك فى الإسكندرية . الحب الأعمى الذى رفعه إلى المشنقة . هو مثال أيضا للقسوة والأنانية والدعارة ، وكم عجبوا للجانب الخفى الذى كشف عنه حب إلهام . لم يفكر مرة فى إغوائها . اعترافاته المتتابعة بين يديها . رفضه استغلالها على أى وجه وتعففه عن أموالها وهو محتق بأزمته الأخيرة . أمه أنشأته على مستوى رفيع من الجاه فلم يكن بد من أن يعثر على الأب الوجيه المزعوم أو أن يرتكب أشنع الجرائم وهى القتل . وانظر كيف ارتاب المحقق فى أمرك من أول الأمر . ورصدت حركاتك فى الشوارع وبقالة كلوت بك وفتروان . وكيف كلف عم محمد الساوى بأن يحدثك عن خيانة كريمة ؟ . أيها العجوز الماكر . يالى من أحق ! ، والزوج الأول محمد رجب أنكروا أى علاقة بالقتيل ، ولكن العاشق وقع فى الفخ . ترى أنكردفعا للشبهات أم أنه قرر الحقيقة بلا زيادة ؟ . ليس فى الصحف ما يقطع باليقين فى هذه المسألة التى سأتك إلى

الهلاك . هل يمكن أن تعرف السر بعد الموت ؟. وعم محمد الساوى أخطأ وهو ينسج أكاذيبه مما هدد التدبير كله بالفشل لولا ذهول العاشق فقد اعترف له بأنه شهد بخيانة الزوجة وفي ذات الوقت أخبره بأنها تزوره فظن لحظة أن الشاب قد فطن إلى التناقض الواضح ولكن صدمته بحكاية الخيانة أذهلته عن إدراك التناقض الواضح . آه .. هذا حق ويا لى من أحق . ووصف تسلكك للذهاب إلى كريمة بإسهاب . كيف عبرت السور إلى العمارة المجاورة وكيف ضبطك البواب وهو راجع من صلاة الفجر حتى اضطرت إلى ضربه حتى الإغماء ، وكيف انتبه المخبر الذى يراقب الفندق تحت البواكى إليك عند اصطدامك بشحاذ ضرير وسماع صوتك وأنت تعتذر إليه !. آه .. ذلك الشحاذ الكريه البشع الأعمى . الجرائد لا تترك كبيرة ولا صغيرة . إنها تشهر بمقامتك وعمالك مع نخبة من رجال الفكر . تحدث أستاذ فى الجامعة عن الزواج غير المتكافئ بين عم خليل وكريمة باعتبارهما المسئول الأول عن الجريمة . وقال كاتب يوميات صحيفة : إن المسئول الأول هو الفقر ، هو الذى أغرى زوج كريمة الأول ببيعها إلى زوجها الثانى ، وأن كريمة شهيدة لصراع الطبقات وفوارقها . وناقش أستاذ بالخدمة الاجتماعية نشأة صابر فى أحضان تاجرة أعراض ورواسبها فى نفسه . وقال أستاذ علم نفس إن صابر مصاب بعقدة حب الأب وأنه يمكن تفسير اندفاعه الإجرامى بأمرين مهمين ، فهو أولا وجد فى كريمة بديلا عن أمه فأحبها . وأن لا شعوره أصر على الانتقام فقتل صاحب الفندق كرمز للسلطة وطمع فى مصادرة أمواله كما صادرت الحكومة أموال أمه . وقال شيخ من رجال الدين إن المسألة فى جوهرها مسألة إيمان مفقود ، وأن صابر لو بذل فى البحث عن الله عشر ما بذله فى البحث عن أبيه لكتب الله له جميع ما طمع إليه عند أبيه فى الدارين .

قرأ صابر تلك التعليقات بفنور وحيرة ثم هز منكبيه استهانة وهو يقول :

« لكن أحدا لم يعرف إن كانت كريمة صادقة أم كاذبة ، ولا إن كان الرحيمى موجودا أم لا » .



في السجن وحدك . لا يزار من ليس له أهل

— ١٦٢ —

ويوما دعى إلى مقابلة محام في حجرة المقابلات بالسجن . وقد خيل إليه أنه
رآه قبل ذلك ولكنه لم يتذكر متى أو أين . وارتاح لوقار شيخوخته فصافحه
وهو يتساءل :

— هل سيادتك المحامي الذى قيل إن الدولة ستختاره لى ؟
— كلا .

ثم بصوت منخفض عن الأول تواضعا منه :
— أنا محمد الطنطاوى .

ولكن صابر وضع جهله بالمحامي الكبير ، فسأله بارتباك :
— من وكل سيادتك عنى ؟ .
— اعتبرنى متطوعا ..

فقال بنبرة اعتذار :

— لا تؤاخذنى إن صارحتك بأننى لا أملك مالا على الإطلاق !
فابتسم الأستاذ قائلا :

— أنا الأخ الأكبر لإحسان الطنطاوى مدير إدارة الإعلان بجريدة أبو
الهول .

— آه .. أتعلم أننى سألت نفسى أين رأيتك من قبل !
ابتسم الأستاذ فسأله صابر بتأثر :

— هل سعى لديك لتتولى الدفاع عنى ؟ .
— أجل ، إذا شئت ..
هتف صابر بغتة :

— إلهام ؟!

ابتسم الأستاذ مرة أخرى دون أن ينبس بكلمة فأغمض صابر عينيه مليا ثم
فتحهما متسائلا :
— والأتعاب ؟

— ١٦٣ —

- المصروفات الضرورية للإجراءات فقط .
- هل يمكن ! . كيف تتصور ! . نفقة جنازة الحب ! .
- لكنه جهد ضائع يا أستاذ محمد .
- مفهوم اليأس لا يوجد في قاموسنا .
- قتلت اثنين مع سبق الإصرار ، واعترفت ..
- ولو ..
- وإلهام .. لم .. ؟
- قيل إنه ليس لك أهل فليس بكثير أن تكون لك صديقة .
- حتى بعد أن عرفت .. ؟
- تقبل ذلك دون مناقشة .
- جفف عينيه بطرف كمه وهو يقول :
- الدمعة الثانية في عمري كله ..
- لا عيب في ذلك ، ولندخل في الموضوع .
- لقد اعترفت كما قلت لحضرتك .
- هنالك ظروف .
- أى ظروف يمكن أن تنفنى ؟
- النشأة ، الحب ، الغيرة ، سلوكك الأمين تجاه إلهام .
- لن أجنى من ذلك إلا مزيدا من التشهير .
- لن نسلم باليأس قبل أن يقع .
- الحكاية كلها كالحلم ، جئت من الإسكندرية للبحث عن أى فوقعت أحداث غريبة نسيت فيها مهمتى الأصلية حتى وجدت نفسى أخيرا فى السجن ..
- ثم وهو يتهدد :
- والآن أكاد أن أنسى كل شيء إلا المهمة الأصلية التى جئت من أجلها ..

- ولكن لا جدوى من التفكير فيها الآن ، ربما أشرت إليها في مرافعتي باعتبارها أول جناية كتبت عليك قبل أن تولد ..
- ولكن إلهام دعتنى بالتليفون ذات يوم لأمر تتعلق بأى .
- وماذا قالت لك ؟
- لم أذهب لمقابلتها محموما بالانتقام من الأخرى .
- أؤكد لك أنها لا تعلم عنه شيئا .
- هز صابر رأسه فى حيرة ثم قال :
- إن نشر أخبار الجريمة فى الصحف يعتبر إعلانا ضحما من نوع غير معهود ولعله يحىء بالنتيجة التى عجز عنها الإعلان المتواضع بمجريدة أبو الهول .
- أنا على علم لا بأس به بأخبارك ولكنى على يقين من أنك لن تجنئ من الاهتمام بأبيك الآن إلا النعب الضائع فإن مجيئه أو عدمه سواء فى موقفك الأخير .
- لا يعد إن جاء أن تحدث معجزة ..
- كيف ؟
- أعنى إذا صح أنه وجيه حقا وذو نفوذ .
- فليكن أكبر الوجهاء ولكن كيف يمكن أن يغير قوانين الدولة ؟
- اسمع يا أستاذ ، لقد كانت أمى ذات نفوذ يوما ما ، فاستطاعت بنفوذها أن تتحدى قوانين الدولة تحت سمع المسئولين وبصرهم !
- بالله خبرنى عن الأمل الذى يراودك إذا جاء أبوك ؟
- تردد قليلا ثم قال :
- ربما استطاع أن يسهل لى سبيل الحرب .
- تماديت فى الخيال ولن تجنئ من وراء ذلك إلا تعب القلب .
- فنفخ قائلا :
- على أى حال أنا شاكر فضلك ، وأرجو أن تبلغ امتنانى إلى الآنسة إلهام ،

— ١٦٥ —

وإلى الأستاذ إحسان ، وسوف تجدنى تحت أمرك فى كل ما تريد ، وأما عن أملى المضحك فإننى لن أياس كما تقول أنت إلا إذا وقع اليأس .

* * *

وقدم صابر إلى المحاكمة . وأحيلت الأوراق إلى المفتى . ونطق بالحكم . وقد تابع المرافعات باهتمام ولكنه تلقى الحكم بذهول رغم توقعه له من أول الأمر .

* * *

وفى السجن دعى إلى مقابلة الأستاذ محمد الطنطاوى . وقابله الأستاذ بعطف وشجعه بكلمات مناسبة ثم قال له :
— لا يزال أماننا الاستئناف ثم النقض .
فسأله بحزن :

— كيف حال إلهام ؟

— ليست على ما يرام ، والظاهر أن مأساتها التى تحدثت عنها الجرائد قد هزت أباهها من الأعماق فجاء من أسبوط لزيارتها وأصر على أخذها معه بعض الوقت تغييرا للجو واتماسا للصحة .

فارتفع صوت صابر وهو يقول :

— إذن استيقظ من جحوده ، أما أبى ..

ابتسم المحامى الشيخ قائلا :

— بهذه المناسبة هل تصدق أننى أحمل لك أنباء عن أهلك ؟

هتف ذاهلا :

— لا ..

— بلى ..

ثم مستطردا بعد وقفة قصيرة :

— ألم تسمع عن الصحفى الذى كان يوقع عموده اليومى بإمضاء

« الصحفي المخضرم » ؟. طبعاً لا ، فلقد انقطع عن العمل منذ عشرين عاماً : وهو جار لي بمصر الجديدة ، وكان قديماً أستاذي بكلية الحقوق ، ومن أفاقه من عرفت في الشريعة ، وقد جاءت سيرتك على لساني وأنا مجتمع به أول أمس ، ولما قصصت عليه قصة أبليك قاطعني :

— أتقول سيد سيد الرحيمي ، لكنني أعرفه !

فقلت له لعل المعنى شخص آخر ، فقال :

— سيد سيد الرحيمي ، الوجيه الغني الجميل ، وقد كان شاباً في الخامسة والعشرين أو نحو ذلك من ثلاثين عاماً .. هتف صابر :

— ألم ير الصورة في الصحف ؟

— إنه الآن لا يعرف الصحف وفضلاً عن ذلك فهو ضريح .

— يا للخسارة !.. ولكن لا يمكن تجاهل التشابه في الاسم .. والصفات ..

والعمر ..

— هذا ملحوظ بطبيعة الحال .

— وأين يقيم ؟.

— للأسف لا يدري شيئاً عن ذلك .

— ألم يحدثك عن زواجه الأول ؟

قال المحامي مبتسماً :

— قال إنه لم يكن له من هواية في هذه الدنيا إلا الحب .

— لكن أمي هجرته ، وتلك حادثة لا يمكن أن تنسى .

— في حياة رجل كالرحيمي ، تعد فيها النساء بعدد الأيام ، لا يمكن أن تعرف

من المهاجر ومن المهجور ..

— أمي لم تحدثني عن ذلك الجانب من حياته .

— ربما لم تعرفه .

- ولكن الزواج علاقة لا تخفى .
- قال على برهان — أعنى الصحفي المخضرم — إنه كان يتزوج كما كان يرافقه ، وكان يمارس الحب بشتى أنواعه .. الجنس والعذرى ولا يعتق ناضجة أو مراهقة ، أرملة أو متزوجة أو مطلقة ، فقيرة أو غنية ، حتى الخادومات وجامعات الأعقاب والمتسولات .
- يا للعجب !
- نعم ..
- ألم يوقعه ذلك فى متاعب ؟
- كان يقهر المتاعب .
- تساءل صابر بعينين حائرتين :
- ومهنته ، ماذا كانت مهنته ؟
- كان وما زال مليونيرا ، لا عمل له إلا الحب ، وكلما وقع فى مأزق هاجر من مدينة إلى مدينة ، مواصلا ممارسته لهوائته ..
- ولكن وثيقة زواج أمى ما زالت معى .
- وربما وجدت وثائق أخرى لا حصر لها .
- ألم ترفع عليه قضايا شرعية ؟
- من يدرى ، ولكنه طليق وفى هذا ما يكفى ..
- فقال صابر بسخرية مرة :
- وقوانين الدولة !؟
- لكنه لم يقع ، وقال الأستاذ برهان إنه غوى مرة عذراء من أسرة كبيرة محافظة ولكنه غادر القطر فى اللحظة المناسبة !
- ومتى رجع ؟
- لم يرجع ، تعلق فؤاده بالعالم الكبير ، وراح يتنقل من بلد إلى بلد ، بل من قارة إلى قارة ، معتمدا على ملايينه ، جاريا وراء النساء من كل شكل ولون .

— ١٦٨ —

- وكيف عرف صاحبك ذلك ؟
- كانت تصله منه رسائل على فترات متباعدة جدا .
- وهل عنده فكرة الآن عن مكانه ؟
- كلا : كانت الرسائل تجيئه بلا عنوان ليس عليها سوى اسم البلد إذ أنه لا يحب الاستقرار في مكان أكثر من أيام .
- لا شك أنه رجل مشهور في الخارج .
- ذلك هو الراجح بالنسبة لأي مليونير وإن قضى الحذر في مثل حالته باتخاذ أسماء وشخصيات شتى .
- متى تسلم صاحبك آخر رسالة منه ؟
- صاحبي لم يذكر شيئا على وجه التحديد ، ولا تنس أنه جاوز التسعين عمرا ، ولكنه يذكر أنه تلقى رسائل منه في جميع القارات .
- لكنه يعرف بلا شك كل شيء عن أسرته .
- لا أسرة له في مصر ، كان أبوه مهاجرا من الهند ، وقد عرفه صاحبي في نادى الصفوة فتوطدت بينهما أسباب الصداقة ، وعن سبيله عرف ابنه الوحيد سيد ، وهو ابن وحيد لا أخ له ولا أخت ، وقد مات الأب منذ أربعين عاما تاركا لوريثه ملايين الجنيهات التي اقتناها في تجارة المشروبات الروحية : فلا أحد له في مصر إلا الذرية التي يحتمل أن يكون أنجبها في مغامراته العديدة .
- مثلي أنا ! .
- مثلك أنت إذا كان هو أباك حقا .
- لا ينبغي أن أشك في ذلك بعدما عرفت من خصاله !
- ابتسم المحامي ملتزما الصمت .
- خصاله هي خصالى ولكن بينا يلهو هو فوق الكرة انزوى أنا في السجن منتظرا حبل المشنقة .
- لكنه لم يقتل !

— ١٦٩ —

- صاحبك الضرب لا يعرف كل شيء .
- هو على كل حال مليونير .
- الأهم من ذلك أن قوانين الدولة لا تهدده .
- لكنك كنت تعلم أنك فقير وخاضع لقوانين الدولة .
- وكنت أعرف من يكون أبقى .
- وماذا كانت النهاية ؟
- أجل للأسف ، أسمى عرفته خيرا من صاحبك المخضرم فاستطاعت أن
- تقتنى ثروة طائلة وأن تتحدى القانون ، ولولا سوء الحظ ..
- لكنه لا يعرف سوء الحظ .
- ولم يكن من المعقول أن أَرْضَى بأن أعمل قوادا بعد أن عرفت أصلى .
- لم تحسن تقليد الأصل .
- بحث عنه .
- وباعترافك نسيته .
- بسبب امرأة وهو عذر خليق بأن يقبله !
- لكنه ليس هو حاكمك .
- لكنه هو الذى نسينى .
- ربما ظنك فى براعته وأنتك غير محتاج إليه ؟
- لو لم تهجره أسمى لكان لى ذلك .
- لكنها هجرته .
- وما ذنبى أنا ؟
- لا ذنب لك فى ذلك .
- وذلك كان السبب الأول للجريمة .
- سبب بعيد جدا لا يعتد به عند تحديد المسؤولية .
- ولكنه أخطر من سبب يعرض صدفة مثل مقابلة كريمة .

— ١٧٠ —

- سيظل القانون هو القانون .
- تنهد بعمق ثم قال :
- لعله من الخير ألا أقطع بأنه أبى !
- ذلك كان رأيى ولكننى وجدتك متعطشا لمعرفة أى شىء .
- وماذا عرفت ؟ ، يخيل إلى أننى لم أعرف شيئا مجديا .
- بلى للأسف .
- وفضلا عن عدم جدواه فما زال بعيدا عن اليقين .
- وبسبب هذه المعرفة الطارئة أصبح الرجل أعز منا لا من الأول .
- هذا راجح جدا .
- وقد ضاعت الحرية والكرامة والسلام وإلهام وكرامة !
- فلاذ المحامى بالصمت مرة أخرى ، فقال صابر :
- ولم يبق إلا حبل المشنقة .
- فقال المحامى بنبرة عتاب :
- هنالك النقض .
- وتردد مليا متفكرا ثم قال مبتسما :
- وثمة خبر آخر حدثنى به الأستاذ برهان ..
- ما هو ؟
- ما يدرى الأستاذ يوما إلا والرحيمى يطرق بابه !
- هتف صابر :
- حقا ؟
- كان ذلك فى أكتوبر الماضى !
- صرخ صابر بلا وعى :
- أكتوبر !.

- أجل .
- كنت في ذلك الوقت أبحث عنه في الإسكندرية .
- وقد أمضى في الإسكندرية ستة أيام .
- يا للجنون !، كنت أسأل مشايخ الحارات ولكنني أجلت فكرة الإعلان في الصحف طالما كنت في الإسكندرية أن أعرض لسخرية أعدائي وجهالوجه .
- ألم تكن المهمة أخطر من سخرية الأعداء ؟
- بلى واحسرتاه !..
- لا تحزن لعله لم يكن يطلع على الصحف .
- هيهات أن يهون ذلك من حسرتي ..
- لا تجعلني أندم على مكاشفتي لك .
- وجعل ينظر إليه في حسرته ثم قال محاولا انتزاعه منها :
- كان في طريقه إلى الهند وقد أهدى إلى صاحبي كتاب « كيف تحتفظ بشبابك مائة عام » كما أهداه صندوقا فاخرا من الخمر المعتقة .
- لا يبعد أن يكون هو الذي رأيته في السيارة ، وهل وقع على هديته
- بإمضائه ؟
- أظن ذلك .
- ألا يمكن أن أرى الكتاب ؟
- سأتيك به .
- وإذا أردت الاحتفاظ به المدة الباقية ؟
- لا أظن صاحبي يرفض طلبك .
- شكرا ، وماذا أيضا ؟
- وقال صاحبي، إنه ما زال محتفظا بحبوية الشباب وأفكاره وضحكاته
- وقال : « إنني أتجول بين قارة وأخرى كما يتجول أصيبعك بين طرفي شاربك » وقال
- أيضا « لا تعد نفسك من الأحياء حتى تطوف بأربعة أركان المعمورة وتمارس فيها

الحب » .

- ألم يذكر في الحديث أحدا من أبنائه ؟
- محتمل أن يكون له في كل قارة أبناء ولكنه لا يتحدث إلا عن الحب ، وقد شرب حتى ثمل ثم غنى أغنية غرامية سمعها في إحدى قبائل الكنغو ..
- ويسكر ويغنى ولا يخطر له أن يسأل عن أبنائه ؟
- ربما تغير مفهوم الأبوة إذا امتدت فوق كثرة غير عادية .
- لكن الأبناء هم الأبناء قلوا أو كثروا !
- كثيرا ما تقع متناقضات غريبة إذا تصور أب قوى أبنائه على مثاله .
- يا له من دفاع !
- نحن نغتفر لبعض الشواذ هفوات لا نغتفرها لغيرهم فما بالك بشخص غريب الأطوار كذلك الرجل !
- آه رأسي يدور ..
- لا تجعلني أندم ..
- لعله ما زال بمصر .
- لقد أرسل إليه بطاقة تحية من الخارج .
- لعله يزورنا قبل الإعدام .
- لا شيء مستحيل .
- آه .. كنت أزور إلهام وأخاك الأستاذ إحسان كل أسبوع ولا أدرى أننى بطريقة ما قريب منك وأنتك جار لبرهان صديق الرحيمي !
- هكذا تقع الأمور عادة ..
- كانت هناك فرصة نادرة للبحث .
- الأمل مع ذلك لم ينعدم .
- كيف .. أى أمل ؟
- أن نستبدل المؤبد بالإعدام .

— أى أمل ؟

— سنجد عند ذاك فرصة لاستئناف البحث .

— وإذا تأيد الإعدام ؟

بسط المحامى راحتيه فى تسليم ثم قبضهما فى وجوم :

— فى حالة الإعدام يبقى لى من الزمن ما يستنفده النقض ثم الفترة السابقة للتنفيذ ، ألا تستطيع أن تقدم لى فى تلك المدة خدمة حقيقية بمحاولة الاتصال بالرجل ؟

— يا بنى القانون هو القانون ، والرحمة والواجب يقتضيانى ألا أضيع وقتى فيما لا طائل وراءه ، والأجدى أن أراجع ملف القضية والقانون الجنائى .

— بالرغم مما سمعت عنه لا تريد أن تقتنع بقوته ؟

— أنا رجل قانون ، وأعلم أن مصيرك بيد القانون وحده .

— قد يدركنى فى فترة الانتظار أفلا تأخذنى على قد عقلى ؟

— إن لم يكن حقا كما تتصوره فأهلا به وسهلا ولكن لا سبيل من ناحيتى

إليه

— إنك رجل ذو خبرة وعلم وجارك يبدو أثرا لديه .

— الاتصال به إن لم يكن مستحيلا فهو يستلزم وقتا لن يتسع لك ، ولا أملك

وسيلة بحال ، وسوف يتطلب منا الاتصال بجميع سفاراتنا فى الخارج كخطوة أولى ، ولا يبعد أن ينتقل فى أثناء الاتصال إلى بلد لا تمثيل سياسى لنا فيه للأسباب التى تعرفها .

آه .. الذكري التى تموت وهى على طرف اللسان . وتشكيلات السحب

التي تعبت بها الرياح . وعصارة الألم المنصهرة وراء القضبان . والسؤال الأعمى

والجواب الغشوم .

— ١٧٤ —

وقال :

— يبدو أنه لا جدوى من الاعتماد على الغير .

فابتسم المحامي في تسامح وهو يقول :

— بل هناك جدوى فيما هو معقول .

فهز منكبيه قائلاً :

— فليكن ما يكون .

رقم الإيداع : ٣٩٧٦

الترقيم الدولي : ٦ — ١٦٧ — ٣١٦ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كائن صدقي - البجالة



دار مصر للطباعة
سميد جودة السحار وشركاه